العدريّة

العدّيّة

رواية

إيمَان محمَّد

الإهداء

إلى عاصمة الثورة حمص العديّة..

(1)

أيها الوطن ... خُذ مني كل شيء.
كل شيء
وأعطني الحرية.

رامي

ها قد طلع الفجر أخيراً!
برودة الطقس توحي بالنشاط، أرهفت السمع إلى وقع قطرات المطر على النافذة، و قررت أن أغامر بعد توجس شهر من تهديد القناص لسطح بيتنا، وصعدت خلسة إلى هناك لأحظى بمراقبة قرص الشّمس يصافح وجه المدينة. أليس حراماً في شرعة الله على مدينة مثل هذه أن تُقهر؟! قلت في نفسي وقد كانت الشمس تبدو في شروقها أمام ناظريّ بهيّة فاتنة، قريبة من كل شيء. من بيوتنا الهادئة التي تغمرها السكينة والتي يعلو جدرانها الياسمين وعرائش العنب، لتبدو وكأنها منقوشة عليها بفنٍ بديع لا يحتاج زخرفة ولا تغيير. ومن نوافذ بيوتنا العتيقة ذات الستائر المطرزة بخيوط الذهب، وشرفاتنا التي زيّناها بأصص زهر الغاردينيا والورد البلدي وملكة الليل واللبلاب. قريبة هي الشمس من أسطح بيوتنا التي اتخذتها أسراب الحمام لها موطناً لا

ينطلق منه إلا ليعود إليه. من حبال الغسيل التي استقرّت عليها العصافير واعتمدتها أرجوحة لأحلامها الصغيرة، من شوارعنا التي سكنها الياسمين، وشمخت فيها الأكاسيا وأثمر في جوانبها البرتقال والليمون. قريبة من مدينة هادئة عميقة الأسرار تنساب أشعة الشمس بحذر لتصنع لنفسها وجوداً في كلّ مكان، وإن كان الشعاع يعرف أن أمكنة كثيرة قد حُبست عنه في المدينة، واختير لها الظلمة رغماً عن سكانها، إلا أن الشّمس ترفض أن تستسلم ليأس، فتعاود الإشراق في كل مرة على حِمص، كما تصرّ رغم حجبها المؤقت أن تشرق بمحبة على كل الأرض.

قريبة من الناس الذين سكنوا هذه الأرض منذ ولادة الأرض، وأنشأوا تاريخاً وحضارة على ضفاف العاصي وقلعتي الحصن وأسامة،من المآذن الأثرية التي تشمخ منذ مئات السنين لتملي على زوارها تاريخاً يكاد يكون منسياً، من جامع خالد الذي تبدو لي منه أطرافقبة ومئذنة، يجمع القلوب حوله في الخالدية. من السوق المسقوف والحميدية والأبواب السبعة.

قريبة أيضاً من حاضر كادت تمحى عن وجهه كل هذه التفاصيل، وتمزق هوية المدينة، حاضر كاد يصنف في كتب التاريخ ضمن أزمنة الصمت والخنوع، حتى طلعت الشمس وكانت الثورة، ربيعاً يطل بعد أربعين سنة من الصمت، ليُحدث زلزالاً له أثر، على أيدينا نحن.

لم يكن في الأفق سوى أنا، وسرب حمام استيقظ باكراً وبدأ رحلة التحليق. الأجواء هادئة نسبياً، لا صوت رصاص يعكر صفو الصباح، ولا ضربات المدفعية ككل يوم تدك بيوتاً كانت لنا قلاع تحرسنا من بطشهم. فقد هدأ كل شيء، هدوءاً

يشبه هدوء الموت بعد انسحاب الجيش الحر من بابا عمرو[1] وسيطرة النظام، لم يعد قلبي يؤلمني لصوت القصف، فقد توقف، فظننت لوهلة أنني بلا قلب. عَبَرَت الزقاق الجانبي سيارة أمن خلفها مدرعة بلون مموه، كان يجلس فيها جنود بسلاحهم وعتادهم، يبسطون قوتهم بعنجهية، ويفرضون أنفسهم بقوة السلاح، تماماً كما فعلوا في الثمانينات يوم أخمدوا ثورة الإخوان بالقهر والبطش والقوة، وقتلوا وسجنوا خيرة شباب البلد.

كنت في مكاني على السطح واقفاً تحت عريشة العنب التي غرسها والدي، واعتنت بها أمي حتى باتت سقفاً من الخضرة يظلّنا تحته بمنظر بهي، ويحجبنا عن عيون الفضوليين من الجيران، ورغم تأكدي بأنهم لن يروني من مكاني هذا تواريت لحظة، ثم عدت فتقدمت للأمام خطوة أراقبهم وهم يسيرون ببطء متعمد ليدفعوا الجميع لمشاهدتهم يسيرون. كانت دورياتهم بمعدل دورية كل نصف ساعة، حواجز دُقّت كمسمار صدئ في كل مفصل من مفاصل المدينة، في أزقتها وشوارعها. بتّ أحفظ مواعيدهم تماماً، وباتت المراقبة هاجسي وألمي، فمنذ أربعين سنة ونحن نراقب بطشهم وظلمهم وجبروتهم بصمت، ولا نحرك ساكناً، ومنذ

1) بابا عمرو أو باب عمرو يفترض أن يكون هو الباب الثامن لمدينة حمص أو هو يتميز عن باقي الأبواب السبعة لحمص بوجود بابين ولهذا سمي الحي (بابا عمرو) نسبة للصحابي الجليل عمرو بن عبسة السلمي الذي توفي في حمص في الشام وقيل في النسبة أقوال أخرى نسبة إلى الصحابي عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي وقيل الصحابي عمرو بن أمية الضمري الكناني. وهو أيضاً حي من أحيائها حيث يقع في الجهة الغربية الجنوبية للمدينة. و أهالي بابا عمرو من المشاركين باللثورة السورية ضد النظام السوري الحالي وبشار الأسد التي بدأت بتاريخ 51-3-1102 وقد عانى أهالي بابا عمرو من هجمات شرسة باستخدام كافة الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع وطائرات حربية والمتوسطة كمضادات الطيران وذلك في قصف عشوائي استهدف مدينة حمص وبالتحديد منطقة بابا عمرو من قبل قوات النظام السوري بعد أن قام الجيش السوري الحر بالسيطرة عليه وجراء الاشتباكات أدى إلى نزوح الكثير من سكانها وانهزام الجيش السوري الحر من بابا عمرو ودخل الجيش السوري على أنقاض ما سببه من دمارٍ كاملٍ للحي.

أربعين سنة ونحن نبتعد عن الشر ونغني له، ونهتف باسمه خوفاً من أن نضيع وراء الشمس، ومنذ أربعين سنة نلوم أنفسنا ومن حولنا على هذا الخوف، تماماً كما لُمت نفسي حين تواريت وإن كنت واثقاً أنني في مأمن.

توقفت السيارة فجأة في نهاية الزقاق، نزل سريعاً منها اثنان من العساكر، ركلوا الباب الخشبي العتيق بقوة، وشعرت بالشجرة التي صنعوا من أخشابها ذلك الباب تئن بوجع عميق.

صعدا لدقائق وسمعت صوت صراخ جارتنا أم سالم، وسمعت دعاءها عليهم، وازداد الصراخ وانتهى بطلقة انخلع لها قلبي وأنا جامد في مكاني لا ألوي على شيء، ولا أهتدي إلى سبيل يوقف هذا الجنون.

أتراهم قتلوه؟! قتلوا سالم الشاب الخلوق؟!

لم يطل تساؤلي حتى خرجوا يقتادونه معصوب العينين وقد وضعوا الأغلال في يديه، أما قدمه فقد كان لا يستطيع السير عليها، وكانت تنزف، ضربه أحدهم بكعب البندقية على ظهره، ومشى خطوتين ثم سقط، انتشلوه كما ينتشلون كيساً من القنب، ووضعوه في صندوق السيارة ومضوا وكأن شيئاً لم يكن.

بدأت الجارات يتوافدن إلى أم سالم، واختلط الدعاء بين الأمل واللا أمل، فلا أحد يمكن أن يتكهن هل سيعود، تماماً كما لا يمكن لأحد التكهن إلى أين ذهب، وما هي تهمته أصلا! تمنيت في تلك اللحظة لو أنني تعلمت صناعة القنابل لألقي بها على هؤلاء المتغطرسين الذين استعبدوا أهل هذه الأرض، وليكن بعدها ما يكون، تمنيت لو في يديّ سلاح أكبر من مسدس صغير أخفيه في ثنايا ثيابي، لئلا أصيب والدتي إن رأته بنوبة قلبية، لأواجه قتلة إخوتي بعد

شهور من محاولة إسقاط النظام سلماً، ولكن عبثاً، فمنطق القوة الذي هاجمنا به النظام يحتاج إلى قوة.

بدأ القناص يضرب باتجاه السطح، فكأنما لاحظ حركتي، وبدأت أصوات الرصاص واشتباكات خفيفة آتية من ناحية حمص القديمة. نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى تمام السادسة، وكان عليّ أن أسرع لإنجاز مهامي التي خططت طوال الليل مع الرفاق لتنهيها مهما كانت صعبة ومستحيلة.

نزلت على أطراف أصابعي إلى غرفتي وأغلقت الباب بالمفتاح، فتحت خزانتي، رفعت الرف، ومن خلفه لمع المسدس وكأنه يستقبلني بشوق. حملته ومسحته برفق وأنا أتخيل وجه صديقي الشهيد عمرو، من أوصاني بالعناية بمسدسه إن هو استشهد. أخذته وتفقدت مخزنه رغم تأكدي مما فيه. سبع رصاصات لا أكثر! وأخفيته في جيب معطفي، وأسرعت خارجاً من منزلي الذي بتّ أشعر أن البقاء فيه بمثابة سجن، وخرجت لألقى الرفاق في باب هود[2]. كل ما كان يدور في ذهني هو كيف أستعيد حق ذلك الشاب بأي وسيلة. الشباب في المقر كانوا متأهبين لأي تحرك، والأوضاع وإن هدأت قليلاً فهي لا تزال متوترة، واحتمال ارتكاب مجازر من النظام قائم، واحتمال اعتقال أي شاب فقط بتهمة الحي الذي ينتمي إليه أيضاً قائمة. كان عليّ أن أفكر أيضاً وأنا في طريقي إلى هناك بطريقة جديدة أمتص فيها غضب والدي الذي بات بركاناً بعد أن اكتشف بأنني مزقت جواز السفر الذي تعب لينهي معاملاته في دوائر الدولة.

2) باب هود: هو أحد الأبواب السبعة لمدينة حمص ولم تبق من آثاره إلا بعض الحجارة، يرتبط اسمه بالنبي هود الذي يقع مقامه جنوب الباب، وهو أكبر الأبواب وأهمها.

حاولت مراراً إقناعه بأن فكرة الرحيل عن هذه البلاد وقد أطلت الثورة لتغير أحوالها هي فكرة أشبه عندي لخيانتها، فهي تحتاج إلى من يجتهد ليزيح عن كاهلها الظلم، وأنا لن أطمئن أو أستريح إن ابتعدت عنها خطوة. لكن محاولاتي في الإقناع قد فشلت، وأمهلني شهر واحد أنهي فيه مهامي وأنطلق مع خطيبتي ضحى إلى أية مدينة أختارها خارج حدود الوطن لنتزوج ونستقر هناك.

كانت الضغوط تلاحقني وتقيدني أكثر من فكرة الموت أو الاعتقال، ولكنني كنت أنحيها وأحاول تجاوزها كلما أغرقت نفسي بمهام الثورة أكثر.

أوقفت السيارة في زقاق جانبي ضمن حي عند أطراف المدينة، وطرقت الباب الأول المطلي بالأزرق كما اتفقت مع الرفاق ثلاث طرقات خفيفة، ظهر على الفور رجل خمسيني، وسألني من أكون؟

أخبرته بأنني أبو عبد الله الحمصي. تلاشى الحذر من ملامحه لحظة سماع الاسم، وأعطاني حقيبة صغيرة وهو يودعني، ويوصيني بالاهتمام بنفسي سائلاً الله الحماية للجميع .

على عجل أخذت الحقيبة وأخفيتها في مكان خصصته في سيارة صديقي الذي استعرتها لهذا الغرض لتهريب هذه الأشياء، وتحسست مسدسي، كان في مكانه متأهباً من أية مباغتة غدر. وانطلقت إلى مقر الشباب في حي القريب جداً من الأحياء العلوية الموالية لنظام الأسد، حيث كانت الاشتباكات على أشدها عند أطراف الحي. وكانت الحاجة ماسة للسلاح والذخيرة. ناولتهم الحقيبة، وعدت لأقف معهم خلف المتراس محاولاً تلبية حاجاتهم، أو أخذ دوري في إطلاق النار، ثم أسرعت عائداً للعمل وشعوري بأنني حققت إنجازاً عظيماً شعور

لا يضاهى.

خفق قلبي، ليس خوفاً هذه المرة، وإنما هو شوق لضحى التي بدا اسمها على شاشة الهاتف، وكأن حاستها السادسة قادتها للاطمئنان، فهي لا تتصل إلا عندما أكون في منطقة تبادل للنيران، ولم يكن بوسعي أن أرد لئلا تقلق حين تسمع صوت الرصاص.

لكنها كانت تتصل بإصرار ولم أستطع الإجابة عليها حتى أطمئن إلى سير الأمور على ما يرام، كان يغيظها عدم ردي، وأشعر بالذنب حين لا أتمكن من تلبية ندائها، وقد تأخرت عليها ونحن قد اتفقنا على توزيع بعض الملابس على المحتاجين في تمام العاشرة صباحاً.

وصلت متأخراً نصف ساعة، فبادرتني بنظرة عتب، أسرعت بالاعتذار فلم تلتفت، وناولتني حقيبة الملابس الأولى وبدأنا بحملة التوزيع بنشاط وإن كانت الأجواء قد شابها بعض الكدر.

كل نوع من الكدر يختفي لحظة تقديم شيء ما يسعد من يحتاجه، حينها يشعر الإنسان بقيمة الحياة، وإن كنت أغض طرفي عن النظر إلى ملامح الفرح تشرق في وجوههم، فقد كنت أعرف أن بعض الفرح يؤلم، وبعض الفرح يصفع بقسوة، وبعضه يُبكي أحياناً.

تسرّب من شقّ الباب طفل صغير في الخامسة، حافي القدمين، ممزق الثياب، كان يفرك عينيه ويسألها وهو يتثاءب، هل سنتناول فتة الخبز والشاي هذا الصباح؟

ولم أشعر بيدي سوى أنها تفتح محفظتي، وتدسّ في يدها بعض النقود، لم أفكر

مطلقاً بعدها عن فعلي اللاإرادي هذا، كم أعطيته من نقود؟ ماذا قلت له؟ لست أدري!

قالت لي ضحى بعدها وهي غاضبة بأنني بدوت شارداً جداً، وتصرفت دون وعي، فأعطيت الصغير مبلغاً ضخماً. ولم أجبها حين سألت، ولم أحاول التبرير أو الاعتذار.

كل ما أعرفه أنني عدت وفي قلبي معزوفة فرح على وقع دعوات والدته التي أرهقها نسياننا كل هذا الزمن، ولم تذكرنا بوجودها معنا على ذات الأرض سوى الثورة.

لم تكن ثورتنا ثورة جياع بل ثورة كرامة، الكرامة هي الوقود الذي يدفعنا لأن نهبها لكل من يطلبها... وهذا ما اكتشفته لاحقاً.

قلت لها ذلك وأنا أتأمل عينيها الجميلتين اللتين اشتقت إليهما كثيراً، وحرمت رؤيتهما ثلاثة أيام بسبب الانهماك بعمل وجهد لا يتوقف. رمقتني بنظرة حانية وابتسمت وهي تخبرني بأنها تفتقدني، وبأنني لم أعد كما السابق أهتم بها. حاولت التبرير ولكنها لم تقتنع.

اغتنمت الفرصة فطالبت ضحى أن تتسلم مع فريق الفتيات الأعمال الإغاثية، لكنها بدت وكأنها تقرأ أفكاري، فتذرعت بفكرة أنها تود التفرغ لسنة التخرج في الجامعة، ثم إن أوضاع الثورة لن تستمر، وسيسقط بشار عن عرشه في غضون أسابيع قليلة.

ضحى كانت تمقت السلاح وتحاول تحييدي عن التفكير فيه بأي وسيلة، الأمر الذي كان يشعرني بالخوف من فكرة أن أخيّر بينها وبينه، فأفقد أحدهما. مجرد

التفكير في هذا الأمر يربكني، فهي تخشى أن أُقتل في معركة أو أن ألاحق، وبعدها سيكون مصيرنا معاً مجهولا، وكنت أرى أن ذلك مهم غير أنه لن يحرك ساكناً ولن يردع ظالماً، فكنا نتشاجر، ونعود في اليوم التالي لتصالحنا الثورة والعمل ضمنها، تماماً كما جمعتنا الثورة في بداياتها، حين أثارت إعجابي هذه الفتاة بجديتها وحرصها على مساعدة الناس، فكانت خطبتنا بعد تعارفنا بشهر واحد، وقررنا أن نرجئ الزواج حتى سقوط النظام ليكون الفرح حقيقياً.

(2)

من قال أن طيور الشّوق لإنسانيتنا
لن تتحوّل ذات يوم
إلى طائرات عائدة إلى أرض الوطن؟!

غياث

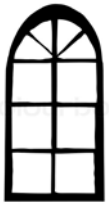

تمام الواحدة ظهراً.
هبطت الطائرة أخيراُ على مدرج مطار دمشق.
ها قد تركت كل شيء ورائي وعدت.
تمالكت نفسي وفككت حزام الأمان، وبقيتُ ساكناً في مقعدي الملاصق للنافذة الصغيرة، والتي لم تُرني من الرحلة سوى جناح الطائرة وبعض الغيم، والآن تلخّص لي سحر دمشق وجمالها، بقطع ممتدة من الأسفلت.
أيعقل أن يحسم المرء قراره فيجد نفسه بهذه السّرعة قد هبط من تحليقه بين غيم الأمنيات إلى أرض الحقيقة؟!
كم كان رامي ذكياً وحكيماً وهو يستدرجني إلى هنا، فأجد نفسي منقاداً بقوة لأحيا التجربة عن قرب، فما عادت رؤية الوطن الممزق من خلف الشاشات تقنعني أن تضميد جراحه يمكن أن يتم في مكانٍ أفضل من داخله، وما عادت حفنة النقود التي أرسلها كل شهر مقتطعة من مرتبي تسكن ضميري الذي لا يكف

كل ليلة عن تأنيبي والصراخ في وجهي بشدة لأعود فأشغل دوراً شاغراً هنا، وما عادت مغريات الغربة تحفزني للبقاء من أجل مستقبل أفضل، أي مستقبل هذا الذي سأصنعه بعيداً جداً والتاريخ في بلادي يُكتب بالدماء؟!

كان عليّ أن أنتفض من مقعدي ككل المسافرين وأنزل معهم إلى الأرض، كنت واثقاً أنني لن أتهيأ لموعد كهذا ولو حاولت إعداد نفسي ألف عام. لكنني تمالكتُ نفسي ونزلت محاولاً إقصاء دمعة، قلتُ لنفسي مؤنّباً:

قد مضى زمن البكاء على الراحلين، ذهبت هديل ولن تعود أبداً، ولابد أن أعتاد التجلّد.

لقد بكيت مساء الأمس عن عمر بأكمله، بكيتُ لبكاء أمي التي أبلغتها برحيلي فباتت تشيعني كأم شهيد، وترجوني أن أبقى، وألا أتهور فألقي بنفسي للتهلكة. كانت التهلكة في نظري أن أشاهد وطني ينزف فأقابله بالخذلان.

قالت لي أمي لتردعني بأن الثورات في بلادنا تأكل أولادها، وأجبتها وكل ما فيّ يرتعد بأن الثورة قد تأكل أولادها -ربّما- ولكن ليعيش البقية مكرمين، وقد آن أوان تغير مسار المعركة لصالحنا، نحن الذين بقينا تحت وطأة الظلم والقهر عقوداً، لكنها لم تصغ لكلامي، ولم تر في وجهي سوى صورة واحدة هي صورتي بالكفن. وكم حاولت رغم ذلك ألا يكون الوداع كئيباً فقد احتجت لجرعة من نور دعائها تغمرني بسكينة أفتقدها، ورغم كل شيء فلم أغادرها حتى سمعت عبارات رضاها بصوتها المتكسر تنسكب في حنايا روحي فتطفئ حريقاً كاد يندلع، ليأكل بعضاً مما تبقى من رماد داخل قلبي، كانت عبارتها زادي في الرحيل. قبلتي الأخيرة على رأسها أوقعت قلبي، وألقتني ضمن فضاء من الخيالات، فقد

تخيلت نفسي مثل أولئك الفدائيين الذين يودعون أمهاتهم قبل تنفيذ العمليات الاستشهادية، ولكن الأمر هنا مختلف، فلست فدائياً، ولست استشهادياً، أنا فقط غياث الحمصيّ، شاب في السابعة والعشرين، مهندس متفوق، أحاول أن أتعرف إلى حياة تستحق الحياة، وأن أقدم شيئاً مما تعلمته لوطنٍ بات يئن تحت مقصلة الجلاد.

قال لي أصدقائي هنا بأنني مجنون أو ربما متهور، قلت لهم إن الجنون أن أترك هذا الحلم.

اصفرّت وجوههم ونكسوا رؤوسهم، وقالوا: أنت شاب عاقل، بل كنت أكثرنا عقلاً، فما الذي يدفعك للمغادرة؟!! ألم تنسها بعد يا فتى؟ لقد رحلت ولن تعود.

قلت لهم: أنا عائدٌ لأرض أنجبتني، والحر لا ينسى الفضل، ولا يتخلى عن الثأر. لقد نويتها هجرة لله، وفي سبيل الله، ولن أتراجع عن قراري مهما حاولتم.

باغتني صوت المضيفة التي رافقتها ابتسامة مصطنعة وهي تقول: « الحمد لله على السلامة» والتي بدا أنها تدربت أن تقولها للجميع بذات الطريقة، أشعرتني بنفاق هذا العالم، فقد قالتها قبلي بلحظة لحشد من الشباب المؤيدين للنظام، والذين صدعوا رأسي طوال الرحلة بهتافات التأييد وكأنهم في معركة انتخابية.

نزلوا قبلي واستطعت أن أرى بوضوح الكنزات القبيحة التي يرتدونها، والتي طبع عليها بشكل مستفز صورة بشار.

شعرت بكثرتهم ووحدتي، ورغم ذلك أخذت أقنع نفسي أن الفوز لن ولن يكون بالكثرة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله!.

ومع ذلك، فقد بدأ الدم يغلي في رأسي، وتمنيت لو نفذت ما تعلمته في النادي

الرياضي من فنون قتال الشوارع عليهم، لكنني تذكرت وصايا المدرب الذي أولاني اهتماماً خاصاً بعد أن عرف بقدومي إلى سورية، فكان دائماً يوصيني أن أصبر، وألا أتعجل معركة قبل أن يحين موعدها، قال لي إن الإعداد هو الأهم، والقوة تأتي من حُسن الإعداد لكل ما جعله الله ضمن استطاعتك. وتلا عليَّ قوله تعالى: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وأخبرني بأنها معركة ضد المسلمين السنة، وليس كما يذاع بأنها ثورة لإسقاط حاكم وحسب! واستدل على كلامه بالتدخل الشيعي، والجنود الذين يتوافدون من لبنان وإيران. ولم ألقِ بالاً لحديثه فقد تساوت الأخبار كلها في نظري، كان عليّ أن أحكم عقلي لأحكم بموضوعية على كل شيء، وبت أشعر بأنني إن بقيت في غربتي فسأعيش منزوياً عن وطني، كرهت نفسي وأنا أراقب على الشاشات أخبار وطن أنا معني به، تماماً كما اعتبرته دائماً معنياً بأبنائه، قررت أن آتي إليه لأشاهد وأشهد، ومن يدري، فقد أُستشهد!

ترجلت من سلم الطائرة مع عصبة المؤيدين لبشار الأسد، متحرياً أن أجعل بيني وبينهم مسافة درجتين أو أكثر، وكأنني ضمنياً كنت أرفض أن يكون لنا ذات الطريق. مضوا لاهين عابثين باتجاه قاعة استقبال الوافدين، وهبطت أنا الدرجة الأخيرة، وعندما لامست قدماي الأرض شعرت بأنني شجرة ذابلة كتبت لها الحياة، فأورقت من جديد.

تمنيت لو استطعت تقبيل التراب، غير أن مساحات من الأسفلت المقيتة حالت بيني وبينه، فأرجأت تلك القبلة للعديّة التي اشتقت إليها أيما اشتياق.

(1)

لا أريد لعرسي أن يكون مجرد فرحة بثوب الزفاف،
أريد أن أصنع من زواجي بداية
أنسج منها للحياة أعراساً مختلفة.

مؤمنة

كلما ذكرت لعبد الرحمن إن زواجنا كان فأل خير على هذه البلاد، ضحك مني ، وأخبرني أنني متواضعة قليلاً، وبأنه يأمل أن يكون فأل قدوم الثورة مواكباً لزواجنا فأل خير، وكان يستدلّ على كلامه بأننا خلال ثلاثة أشهر فقط قمنا بتغيير عش الزوجية ثلاث مرّات بسبب القصف. وكما بدا لي بأن حمص كلها كانت تُقصف، ولن ينجو حيّ من جبروتهم، فطالبته أن نستقر في أي مكان مهما بلغت درجة الخطر، المهم أن نبقى معاً أنا وهو تحت سقف واحد وإن كان الرصاص قد أحدث فيه الثقوب، أو خلعت نوافذه القذائف أو الصواريخ، وكان ينعتني دائماً بالجنون.

وضعت غطاء سريري وابتسمت كفراشة وجدت زهرة أخيراً كي تحط عليها بعد عناء تجوال في القفار. كنت في كل مرّة أحملُ معي جهاز عرسي الذي حكته

بيدي، وثوب زفافي، وغطاء سريري اللؤلؤي المطرّز بالخيوط الورديّة، وصور الزفاف التي كانت تحمل لي أجمل ذكرى مرّت عليّ في أعوام حياتي العشرين التي قضيتها في يُتم أحاول تقبل فقد والدي، ووحدتي وألمي حتى عرفت عبد الرحمن فكان أجمل ما حدث لي في حياتي، ومنذ زواجنا لم أعد يتيمة أبداً.

جلس عبد الرحمن على طرف السرير يراقبني كيف أقوم بتحويل الغرفة البائسة التي تسلمناها من صديقه خاوية على عروشها إلى جنة. لاحظت الدهشة والإعجاب في عينيه، وسألني متعجباً:

هل أنتِ ساحرة؟!!

ابتسمت وأخبرته بأنني لا أستطيع البقاء في مكان لا روح فيه.

طلب مني أن أجلس إلى جواره، وذكرني بما أخبرني به قبل اندلاع الثورة، يومها كنا خطيبين، فباح لي بحلم قال بأنه يثير سخرية الآخرين، هو أنه يتوق لأن يجاهد فيحرر فلسطين، يومها أخبرته أن ذات الحلم يؤرقني، فلمحت في عينيه دمعة، وسألته ما الذي آلمه؟

فقال لي:

كيف لنا يا مؤمنة أن نصل إلى فلسطين وأغلالنا هنا تجرّنا إلى ليل من الصمت والقمع والذل، أنّى لمن استمرأ الذل أن يحرر فلسطين!

قلت له يومها:

«لا تدري.. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» .

ذكرني عبد الرحمن بما كان بيننا، وسألني هل لازلت عند كلامي الذي قلت؟ فأومأت برأسي موافقة.

ذكّرني بما كان منه قبيل شهرين أو أكثر، يوم أتاني حائراً متألماً، يحاول جاهداً أن يخفي حيرته وألمه. قال لي بأنه يفكر أن يستدين مبلغاً كبيراً من المال ليشتري بندقية وبعض الذخيرة، ولم أدعه يكمل حديثه، فحملت له مصاغي من الذهب، ذلك المهر الذي قدمه لي ليلة زفافنا، وطلبت منه أن يشتري البندقية، لم يستجب إلا بعد إلحاح، وبعد أن وافق طالبته أن أرافقه في كل رحلة وفي كل خطوة يقدم عليها. وسألني متوجساً وكأنه يخشى أن أتراجع عن قراري، هل تراني نادمة على ما فعلت؟!

وأغلقت فمه بيدي وأخبرته بأن الزمن لو عاد إلى الخلف ألف مرة ما تراجعت عن قراري أبداً.

لم أشأ أن يطول حديثنا هذا فقد خشيت من تطوراته، فسيسألني عن الموت وفكرة استشهاده، وسأخبره بأنني لن أكون إلا له. فأسرعت لألفته عن هواجسه، وطلبت منه أن يساعدني في توضيب المنزل قبل أن يطرق الباب طارق ما يشغله عني .

هنا بدأت العمل على نفسي، فكنت أستغل غفواته القليلة على سرير يئن كلما شعر بأرق واحد منا وتقلبه، فكأنه يترجم ذاك الأنين، فيما يلتزم صمتاً إن استغرق من عليه بالنوم فكانت تلك لحظات حاسمة أجرب فيها حمل السلاح، وكان يستيقظ فجأة فيجد بندقيته مفككة إلى قطع صغيرة، فيسارع إلى جمعها قبل أن تغدو ذكرى بندقية.

اتصالات الأهل والأقارب فقط هي التي كانت تنغص عيشنا، كونها تطالبنا أن نرحل، وتسألنا ما بالنا نتمسك بمكان فيه العدوان والخطر، فلا نملك نحدق

ببعضنا بعضاً للحظات ثم ننفجر ضاحكين، فلن يعي أحد تلك اللذة التي نحياها تحت الخطر، وأمننا وأماننا إيماننا بما نقوم به، واجتماعنا جسدين في قلب واحد، فنلقي كل المخاوف خلفنا ونواصل الطريق بكل الأمل.

(4)

وقد أتيتكِ لأضع فيكِ بصمة من ضوء،
لا أن أرغم على بصمة قاتمة في أفرعكِ الأنثية.

غياث

لم أكد أسير خطوات ضئيلة على أرض المطار حتى وجدتهم يحيطون بي.. اثنان من الأمام، والثالث وهو أكثرهم ضخامة وقف من الخلف. نادوني باسمي وبدا أنهم يعرفون مسبقاً من أكون، ووضعوا القيد في يدي، واقتادوني كمجرم إلى مكتب التحقيق. كان الصمت وسيلتي لأحتفظ برأسي ولو مؤقتاً في مكانه.

لا أذكر شيئاً عن حالة المطار حينها، ولا عدد المسافرين أو القادمين، كل ما لمحته في خطواتي السريعة التي كانت تجاريهم ظلال وجوه قاتمة، وربما كان وجهي هو القاتم، أو الدنيا هي التي أظلمت في وجهي فجأة، ولم تكد كلمة « خيراً» بصيغة الاستفهام تخرج من فمي، حتى كنا نتحرك سريعاً ونختفي في ممرات حتى وصلنا إلى مكان بدا لي أنه المكتب الأمني هناك. لست متأكداً كم لبثت أمام ذلك الباب المطلي بالأبيض، المتسخة أطرافه بآثار أيديهم، وبقايا حبر من بصمات

الأبرياء الخارجين من تحقيقات ماثلة.

جفّ حلقي، وحاولت التقاط أنفاسي عبثاً، وانهالت علي كل كوابيس السجون، ولا أدري أي حماقة ارتكبت حين أقدمت على قراءة « القوقعة»، و « خمس دقائق» قبل أن أتخذ قراري بالعودة إلى سوريّة.

تذكرت كل تفاصيل الروايتين، وأيقنت أن لي مصيراً ماثلاً، وفي أحسن الأحوال سيكون مصيري دخول السّجن تحت طائلة تهم كثيرة، فخالي سُجن وابتلعه سجن الموت تدمر، بتهمة كونه من قيادات الإخوان المسلمين أيام الثمانينات، وعمّي شقيق والدي سافر إلى العراق ليسهم بدحر الأمريكان عنها، ولما عاد اعتقلته الدولة بتهمة الإرهاب والانتساب إلى تنظيم القاعدة، وأما أخي الأكبر الذي اطمأن قلبي أن أمي في عهدته، فقد ترك البلاد منذ عامين تحسباً من حملة اعتقالات واسعة استهدفت حزب التحرير الذي بدا للحكومة أنه معجب بأفكاره، وبقيت أنا خارج كل التصنيفات، ولكن هل سأقنع المحقق إن سألني لماذا عدت؟! وهل يعقل أن يكتشفوا اسمي المستعار الذي أشارك فيه على صفحات الثورة؟!

كل الإجابات التي حضّرتها قد اختفت بلمح البصر، كل الحكايات التي ألّفتها طارت بجناحين وحلّقت مهاجرة عن هذه السماء التي تُعشق، تماماً كما حلقت طائرات كثيرة مكتظة بالراحلين خوفاً ورعباً من فكرة القتل أو الاعتقال.

لا أعرف كم بقيت واقفاً أنتظر دوري عند الباب، أستحضر كلماتها وصورتها التي جاهدت لإقصائها عن ذاكرتي تجنباً من حالة انهيار، كل شيء هاجمني فجأة، أمن المطار، وحبيبتي هديل التي نعمت بشهور خطبة لم تكتمل، وصوت أمي

المتكسّر، ونزف الوطن في شراييني.

وحدّثت نفسي؛ أيعقل أن أقتاد إلى ذات السجن الذي اعتقلوا فيه هديل؟ أيعقل أن أزج في ذات المنفردة التي كانت تُعذّب فيها وتُغتصب!

ليتهم يفعلون لأكفّر عن خطيئتي، أنا الملام لأنني أرجأت القدوم لسورية ولم آت إلى هنا منذ لحظة اندلاع الثورة فيها على أمل أن يحسم الأمر لصالحنا في شهر أو شهرين.

أنا الذي حرمت نفسي لذة الهتاف في المظاهرات، وجرأة الهرب تحت الرصاص، وشجاعة المواجهة، وفوق كل ذلك، حماية هديل التي كانت هي الأخرى تحمي سواها.

وتأجج الغضب فجأة في صدري وخيالها يلوح، وأنا على تلك الحالة من الذل وانتظار المصير المجهول، فسألت رجل الأمن بنزق:

هل سيطول انتظاري؟

ولم أتلق إجابة، بل تلقيت لكمة على وجهي، ولم أشعر إلا بالدم يسيل من أنفي، وصوت الرجل المريب صاحب العيون المظلمة خلف النظارة الشمسية يدوي..

اخرس وانتظر..

فُتح الباب فجأة، وصدر صوت أجش من الداخل ينادي بإدخالي أخيراً، وبعد ساعتين من الاستجواب والتحقيق، تأكدوا -على حد زعمهم -بأنني مواطن شريف، والمسألة برمّتها تشابه أسماء. الأمر عاديّ جداً!

لوثت إصبعي بالحبر القاتم على إقرار أكثر قتامة وظلماً.

بصمتي بدت لي كوصمة عار، فقد أتيت من أجل بصمة مختلفة!

ومع ذلك خرجت كمن ولد من جديد، وتحاملت على نفسي وأنا أتسلم متاعي الصّغير، حقيبتي ومحفظة نقودي وهاتفي المحمول، وأوقفت سريعاً سيارة أجرة، كهارب من نفسه إلى نفسه، ودفعت أجراً مضاعفاً كي يقبل بإيصالي إلى ما كانوا يرونها مثلث برمودا الثوري، وكنت مصرّاً حين سألني إلى أين يقلّني أن أذكرها وأنا أركز على كل حرف، أوصلني إليها.. إلى حمص.. حمص العديّة. وكنت أترقب وجه مدينتي مشرقاً ينتظرني كعادته، بأشجارها النحيلة المائلة، وبيوتها الساكنة المتواضعة التي تمتد بهدوء وحنان بعضها قرب بعض، وشوارعها التي تفوح منها رائحة أشجار الأكاسيا والنارنج والليمون، كنت مشتاقاً للياسمين يتدلى على أسوار البيوت، ولدالية العنب طموحة تتسلّق أعلى شقق المباني على حبال الغسيل، كنت مشتاقاً لرائحة مسحوق الغسيل الذي تسرّبه النسمات الباردة من الشرفات، وللأمهات يوبخن الأطفال الذين يلعبون الكرة في الشوارع الجانبية والساحات الصغيرة كيلا تتسخ ملابسهم، ولوجوه الأطفال موردة من كثرة اللعب، ولشعرهم منساب على جباههم الحنطية والسمراء والبيضاء وقد تندّى بحبّات العرق، وللكرة الممزقة يركلونها بأحذية رياضية أو مكشوفة بلا ملل. كنت مشتاقاً لبائع غزل البنات وبائع عرق السوس والجلاب بثيابه التراثية يجمع حوله حشداً من العطشى إلى نكهة العدية التي لا تشبه نكهتها أية مدينة عرفتها، ولعربات الفاكهة التي لا تنقطع شهية ناضجة صيف شتاء، وللشيوخ يجلسون على كراسي الحديد المنجدة بشرائط البلاستيك الملون، أو كراسي الخيزران المشوقة المنجدة بالقش، يثرثرون أو يلعبون الشطرنج، ويحتسون الشاي بالنعناع، ويتداولون أخبار المدينة فلا حاجة لقراءة جريدة محلية، فنجان في

المقهى كفيل بأن يأتي لك بكل الخفايا والأسرار.

غير أنني نسيت كل أشواقي حالما شاهدت أول حاجز عسكري، كان يقف عليه رجال مسلحين يرتدون الزي العسكري المموه، ويحملون بنادقهم بأيديهم أو على أكتافهم وهم يفتشون بدقة كل عابر، حتى الدمية في يد الطفل الصغير.

وكأن الظلام حل فجأة، فلم أعد أر من حمص أي شيء سوى هؤلاء، فأيقنت لحظتها أنني في مدينة محتلة.

ابتسمت ساخراً من الفكرة وعاتبت نفسي، وكأن سورياً واحداً لا يعرف بأنها محتلة إلا اللحظة! وماذا عن عقود الظلام التي مضت؟ ألا تتلخص بقيد وسوط وجلاد؟!

الأفرع الأمنية كانت تحاصرنا بإمعانٍ منذ ولدنا، والحكم الاستبدادي لم يتغير، نحن الذين تغيرنا وقررنا ألا نصمت بعد اليوم.

وللأسف كان توقيت عودتي مواكباً للهزيمة، فجوهرة الثورة حي « بابا عمرو» المطل على بساتين المدينة والذي تميز بمظاهراته الفريدة وانتفاضته الشجاعة على النظام، قد سقط منذ أيام قليلة، وانسحب الجيش الحر منه في ليلة عاصفة باردة مظلمة، وسادت في المدينة التي كانت تتكئ على الشجعان من أبنائها لتتابع ثورتها، سادت مع انسحابهم حالة من الرعب والفزع، وهي التي أُمطرت بالقذائف ورشقات الدبابات حتى أنهكت، وهيمن وحش النظام بدباباته وصواريخه ومدافعه، حتى تحولت إلى حقيبة سفر كبيرة لا تتسع لهموم المهجّرين.

كنت أحدق في وجوه العساكر فأقرأ ذعراً آخر، فهمّهم الوحيد كان ينحصر في ألا تتشكل مجموعات من الثوار في مكان آخر في المدينة، وتصبح مسألة

السيطرة والقضاء على الثورة أمراً بالغ الصعوبة، ولذلك كانوا يمعنون في إظهار القوة.

السيارة التي سبقتنا كانت تقلّ رجلاً وبناته الثلاث، الأولى بدت في الخامسة والعشرين من عمرها، والثانية بدت أصغر قليلاً، فيما الثالثة بدت وكأنها في الثانوية.

بطريقة مهينة طلب العسكري نزول جميع من في السيارة، ونظراته كانت مصوبة للفتيات، مصحوبة بالشتائم القذرة، فيما كانت نظرات الرعب تنطلق من وجه الأب الذي اختفت منه كل ملامح الحياة.

لحظات صمتٍ وترقّب لما سيحدث، وبدا واضحاً أن العسكري يحاول تهديد الرجل وابتزازه لقاء أمر ما، ملمحاً بطريقة أو بأخرى للفتيات.

كان شعوراً قاسياً مرّاً أن أكتفي بالمراقبة، فالنزول لإحداث شجار ما مع ذلك الحقير سيجعل الأمور أكثر سوءاً، كان قلبي يخفق بشدة، وأحاول الضغط بقبضة يدي لأمتصّ غيظي، غير أن الأمر قد حسم، والبيعة تمّت، فقد سلّم الرجل مفاتيح سيارته للعسكري، ومضى وبناته ناجين بأنفسهم نحو المجهول، ربما إلى غير عودة.

عبرنا شوارع المدينة بتأهب عالٍ، وصمت آسف حزين.. وكنت أفتش في كل شارع عن هديل، عن بقايا ذكرياتي هنا أو هناك، لكن، لا شيء مما توقعته كان.. فالانكسار هو الطابع الوحيد الذي يكسو المدينة بكل تفاصيلها، حتى وجوه العابرين، وإن بدا ظاهرياً أن الحركة عادية.

اقتربنا أكثر ناحية دوار الغوطة وسط المدينة؛ واستفزني أكثر منظر الحاجز

الذي استقر هناك، ولعربة زرقاء مدرعة تأخذ حيزاً منه وبدا الأمر وكأننا في ثكنة عسكرية.

فيما كان البرج العالي ضمن المشروع الاستثماري الضخم المسمى « حلم حمص» يستثمر ارتفاعه ليرشق بين الساعة والأخرى رشقات متتالية من قناصه الذي لا يهدأ.

عبرنا الدوار بحذر، وآثرت النزول في منطقة الحمراء، لأتصل بصديقي رامي الذي تعرفت إليه في غربتي عبر الإنترنت، وكان طاقة جبارة في المجال الإغاثي، يرغم الجميع أن يتفاعلوا معه ومع كل حالة إنسانية يعرضها ليؤمنها من ناحية المال أو الطعام أو الطبابة أو الدفء.

تواعدنا عند مشفى الكندي على شارع الكورنيش في وسط المدينة، وفي غضون عشرة دقائق وصلت إلى المكان المطلوب.

(5)

لا تطالبني بالحديث عن العريّة،
بل دعها هي تقابلك، وتحكي مواجعها لك
ثم دعها تتحدث بفخر عنك.

رامي

وقفت عند مشفى الكندي المطلة على شارع الكورنيش وسط المدينة أنتظر صديقي غياث بشوقٍ لا يحد.
رغم أن تعارفنا كان الكترونياً إلا أن بعض الأشخاص لا يمكن إلا أن يستقروا في قلبك منذ المحادثة الأولى، لتستشف صدقهم ورغبتهم بالعطاء.
فاجأني وجهه الحائر الباحث عني، اعتبرتها مزحة وتركته يضيع قليلاً في زحام الوجوه، فالمكان كان يضج بأسر تتفقد الجرحى من أبنائها، كنت أريد أن يكتشفني بنفسه، وأن يدله قلبه عليّ، وقد صدق ظني به، فما إن وقعت عيناه عليّ حتى تقدم بثقة، وفتح باب السيارة وجلس إلى المقعد الذي يقع جواري وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن.
كان عليّ أن أضعه أمام الواقع ليساعد نفسه على اجتياز مرحلة من الصدمة كان يعاني منها أغلب الشباب العائد من الغربة، وقد رسموا في مخيلتهم كل

الصور القديمة ذات الرونق، والتي استحالت اليوم إلى رماد، فسألته بداية إن كان قد كتب وصيته، وشعرت أنه قد وجد سؤالي غريباً، فطالبته ضاحكاً بنطق الشهادتين، وانطلقت بسرعة خاطفة بين أزقة حفظت مداخلها ومخارجها عن ظهر قلب، لأبتعد عن نظر القناصة الذين نشرهم النظام في الأبراج المرتفعة، ظن في البداية بأني أمازحه حتى لمعت رصاصة أمامنا وقد أطلقت باتجاه السيارة، كان الرصاص يستهدفنا بشكل مباشر، ولم أعرف كيف نجونا بأعجوبة. لاحظت دهشته وهو يراقب وجه المدينة حزيناً رمادياً شاحباً، ونظرت في وجهه فكأن عدوى المدينة أصابته فشحب وجهه، وازرقت شفتاه وارتجفتا، والتزم الصمت.

أوقفت السيارة جانباً لأدفعه كي يتمالك نفسه، ويستعيد هدوءه الذي أحببته فيه، كانت فرصة أن أراه عن قرب، مختلفاً عن كل الصور التي كان يرسلها، هو أقصر وأكثر نحولاً مما تخيلت، وعيناه أكثر ذكاء واتقاداً مما توقعت، رغم وجود مسحة الحزن التي لم يتمكن من إخفائها.

كان علي أن ألقي على مسامعه بعض النكات السخيفة، وأذكره أنه في عاصمة الضحك، غير أن محاولاتي لم تُجدِ نفعاً، فآثرت تركه لتأملاته وأحزانه، فالواقع كفيل بجعلها تتبدد.

ضحى كانت تتصل، وقد لمحتني أقود السيارة باتجاه حمص القديمة. فبعد انسحاب الجيش الحر من بابا عمرو باتت تقلق كثيراً، وتحذرني أن أخوض تجربة مماثلة. وكنت أرى تطورات الأمور، وأحاول أن أخفي عنها بعض ما أفكر فيه، فكلما بادرتها بحديث عن ضرورة المواجهة ثارت ولم تتح لي فرصة لأشرح وجهة نظري. وكنت أجيبها إجابات مقتضبة، أحاول أن أهدئ روعها لعلها تخفف بعض

القلق عليّ ولكن عبثاً، فكانت اعتذاراتي تنهال وتعلقني على أرجوحة الحب ما بين قبولها أو رفضها، فلا أشعر بصفو المزاج في يومي حتى تقبل أعذاري، وإن رفضت كان جحيمها أشد من جحيم النظام بأسلحته.

تابعت السير مع غياث، محاولاً مراعاة شعور صديق فقد خطيبته منذ فترة وجيزة، وحاولت لفت انتباهه عن انشغالي القصير في محادثة ضحى خارج السيارة، فسألته إن تغيرت حمص بالنسبة إليه، لكنه بدا في حالة ذهول، يتأمل طويلاً منظر الأبنية المحترقة والشرفات المتهاوية، وأجهزة التكييف التي تتدلى منها كقلادة.

عرّفته على أماكن سقوط الصواريخ، ونظرت إلى حرقة قلبه مجسدة في نظرة لم تكن عابرة أبداً للمآذن الأثريّة المقصوفة، وقررت التوقف أخيراً أمام جامع الزاوية[3] الذي كثيراً ما أخبرني عن تعلقه به واشتياقه للصلاة في محرابه، لتكون هناك محطتنا الأولى.

3) جامع الزاوية: يقع جامع الزاوية في باب هود أحد أعرق أحياء مدينة حمص يطلّ على ساحة صغيرة سمّيت باسمه ساحة الزاوية.

تميّزت المظاهرات فيه بحسن تنظيمها وبلوحاتها الأكثر تميزاً بحمص و الهتافات التي تؤلف خصيصاً للمظاهرات من قبل شباب الحي حتى باتت علامة فارقة بين مظاهرات مدينة حمص .

(6)

وأقولُ هنيئاً... ثم هنيئاً...
لمن فارقتِ وهو يدافع عنكِ،
وقد رأكِ بشموخكِ ترفعين الظلم،
وبيديكِ تنسجين جدائل النّصر.

غياث

استقبلني زفاف لشهيد.

كان رفاقه يتسابقون لحمله بثيابه الملطخة بدمائه إلى القبر، وهم يكبّرون بحرقة. بأيديهم حفروا قبره، بأيديهم وضعوا حدوده من الحجارة المتناسقة، ثم مالوا عليه يبكون ودموعهم تسقط على وجهه فيمسحونها بإباء ثم ينصرفون تاركين دوراً لمن ينتظر.

بدا وجهه صافياً هادئاً وكأنه نائم بعمق، ولم أتنبه للرصاصة التي استقرت في رأسه حتى بدأ الدم منه يسيل. لم أعرف أبداً اسمه الحقيقي، لقبوه بأبي علي، دفنوه وكأنهم يضعون قطعة من قلوبهم تحت التراب، وجلسوا قرب القبر يدعون له بالقبول والرحمة.

قال أحدهم وقد كان رجلاً مسنّاً قد هاله منظر الفراق، ورثى لحالهم..

- لا تحزنوا عليه، بل احزنوا على أنفسكم، لقد لقي الله مقبلاً غير مدبر، فاحتسبوه عند الله شهيداً، وحاولوا سد الثغر الذي كان يشغله.

معظم الشباب هنا لم يكونوا يعرفون اسم الشهيد الحقيقي، كان من الأشخاص الذين لا يتكلمون إلا قليلاً، لكنهم يعملون كثيراً. هذا الرجل ترك أهله وأسرته في بلاد الغربة، وعاد ليخدم أرضه بعلمه وخبراته وعمله، أسس ورشة تصنيع صغيرة للقنابل اليدوية، كان منكبّاً في كل لحظة على عمل أو تخطيط، ولم يهتم كما فعل شباب كثر بالتقاط صورة لنفسه مع السلاح، ولم يطالب بحضور الاجتماعات المهمة التي كان يعقدها القادة، قناعاته كانت منصبة على وظيفته، وكأنه ناسكٌ متعبّدٌ بجهده في أرض جهاد.

أثّر بالشباب حوله أنهم لم يعرفوه كفاية، ولم يحتكوا به أكثر، لكن مشاهدتهم لصلاته، وخلواته الخفية مع القرآن، وهدوئه وسكينته، وابتعاده عن الكلام الكثير أو حب التباهي بالعمل، جعلهم يتألمون أشد الألم لفراقه، ويحاولون أن يتحلوا ببعض خصاله.

كان استشهاده كما بدا لي صادماً لكثيرين، ودافعاً لتغيير طريقة تفكير مجموعة من الشباب، ظنوا بأنها ثورة حماس وحسب، هتافات وإبراز شجاعة واندفاع، واستهتار بالموت، وسخرية من الحياة.

لكن رؤيتهم لهذا النموذج أغنى عن دروس كثيرة فتغيرت النظرات، وخفتت أصوات التباهي، والتفت كلّ إلى عمله.

كان الدفن يتم في عدة مقابر منها مقبرة باب السباع، أو في حدائق واسعة في

حال احتدام القصف وانقطاع السبل بين الأحياء.

رائحة الموت، ومنظر القبور ذكرني بمقبرة لم أجرؤ على زيارتها، وهي مقبرة حمص الرئيسية التي استقرت بها قبور الموتى في المدينة، وباتت تُشد رحال الناس إليها ليودعوا شهداءهم أو ليقوموا بزيارتهم، تلم المقبرة التي دُفن فيها شهداء الثورة الذين قتلوا تحت التعذيب، والتي دفنت فيها هديل دون أن أودعها. ولست أدري من أُلهم وجود ثورة قادمة في المستقبل، وشهداء يقدمون أرواحهم في سبيل العدالة والحرية، سنودعهم، فأطلق على ذلك التل اسم « تل النصر»، هذا الذي دفن فيه شباب جمعتني بهم سنوات الدراسة، قطفت زهرة أعمارهم لأنهم أرادوا عالماً لا ظلم فيه ولا قمع ولا محاصرة للحريات، ولست أدري فربما أتمكن من حجز قبر لي هناك قريباً بعد أن أثأر لهديل.

قاد رامي السيارة هذه المرة هادئاً، وكأنه يتابع التشييع مأخوذاً بحالة الوداع، محاولاً أن يحبس عبرة قهر بدت رغماً عنه.

ومع أن الأجواء كانت أجواء وداع، لكن الهدوء الذي لمسته كان باعثاً على السكينة، فلا تضييق هنا، ولا مطاردات ولا اعتقالات. كانت منطقة آمنة من ظلال القهر، آمنة من وجه بشار الأسد، وفي ذات الوقت مهددة في كل لحظة بالقصف والدمار، لم أفهم حينها كيف تجتمع معادلة توافق الأمن والخوف معاً في لحظة واحدة وفي مكان واحد.

في حمص القديمة كل شيء يختلف، شكل الأبنية والشوارع والأرصفة والجدران، حتى عبق نسيمها له رائحة تبعث في الميت الروح فيعود حيّاً، فلم أتمالك نفسي، ونزلت من السيارة لأطبع أخيراً قبلة على التراب.

فيما كان رامي يتظاهر بأنه لا يراني، كنت أتحامل على نفسي من البكاء، ونحن نغوص داخل كل زقاق ضيّق مرصوف بالحجارة العتيقة السوداء، فأشعر بحنو الجدران علي، بحنو الأشجار، بحنوّ الحجارة، بحنو الفوانيس القديمة المعلقة بين الخطوة والخطوة، بالخضرة تثبت نفسها بثقة من شقوق الحجارة لتنطق بالحياة، بالقباب نلحظها من كل ناحية بعد أن تنادينا المآذن، بشعور غامر يربط كل مولود بأمّه وهو يحاول أن يخطو خطواته الثابتة أخيراً أمامها، بعد أن تخلى عن كل شيء لأجلها وهي ترقبه بحنان وكأنها تقول.. دربك نُور.. دربك أخضر رغم السواد. وتوقف رامي بالسيارة دون مقدمات أمام جامع الزاوية تاركاً لي فرصة التأمل والاكتشاف والدهشة. كانت الفتحات في الجدران واسعة بفعل القصف لدرجة تمكنك من الدخول ضمنها إليه، ومع ذلك قررت الدخول من بابه الرئيسي، ورغم أن الجامع مدمر من الداخل ومهجور إلا أنه كان فيه حارساً مسؤولاً عنه، فتح لنا الباب وأدخلنا لنرى هطول أشعة النور من الثقوب التي ملأت القباب، ولنرى كيف فرشت أرضه القذائفَ ببساط فسيفسائي من الزجاج المتناثر، مما جعل التجوال أو فكرة الصلاة في محرابه أمراً عسيراً.

ورغم ذلك كانت الصلاة فوق الركام والزجاج المحطم لها مذاق خاص، مزيج رهبة وخشوع، فبُحتُ في سجدتي لله بأحزاني وهمّي، وسألته أن يعينني كي أفعل شيئاً ما يمحو هذا الألم.

كان رامي واقفاً بقامته الفارعة وقد ارتدى جعبته ووضع بندقيته على كتفه ففاجأني، أنا الذي ظننته مقتصراً في كل أعماله على الإغاثة، وكنت أراه بطلاً يقتحم المخاطر ليوصل طعاماً إلى أسرة منكوبة أو فقيرة مشردة أو إلى مريض لا

يقدر أن يجد لنفسه دواء. قد وقف هناك يتحدث لأحد الشباب حول إمكانية تأمين السلاح والذخيرة في حارات متعددة ودون مشكلات.

تركتهم يخططون وفرغت لنفسي وأحزاني ولمّا عدت، تحريت أن أخفي دموعي التي غسلت فيها بقعة صغيرة من الأرض..

لاحظ شرودي فحاول الاستفسار عما أفكر أن أفعله، فطلبت منه أن يصلني بأفضل كتيبة في حمص القديمة يمكنها أن تدربني على حمل السلاح والتصويب البارع وإطلاق الرصاص..

كان مذهولاً لطلبي المفاجئ، أنا الذي أخبرته يوماً أنني لا أطيق حمل السلاح، ولا أفكر في حمله.. لكنه لم يواجهني بحديثنا الأخير، وآثر الصمت برسم الموافقة، واحترمت موقفه في عدم إحراجي بسؤال جديد أمام إصراري على البقاء في منطقة الثوار، والعمل ضمن كتيبة.

سرنا صامتين، مما أتاح لي فسحة للتأمل، كنت مشتاقاً للحجارة السود، للأبنية المتلاصقة تحنو إحداها على الأخرى، لأزقة تحتضن المواجع، لرائحة تاريخ تضوع في الأرجاء فتسحر، وتربط كل عابر بالمكان.

وكنت طوال الطريق أفكر بالفرق الشاسع بين حواجز النظام وحواجز الثوار.. الحقيقة التي استطعت أن أستشفها منذ الدقائق الأولى من تجوالي أن الثوار قد استطاعوا في أسابيع قليلة البدء بتنظيم أمور كثيرة من الناحية العسكرية والمدنية على حد سواء، حتى وإن كان عملهم متواضعاً، فقد استقبلنا شرطي ينظم السير، ووجدت هناك شروطاً أمنية مفروضة على الداخلين والخارجين، وأفكاراً تتوافد للتنظيم والتنسيق. ورغم أن الطريق إلى حمص القديمة مغامرة

محفوفة بالقنص والرصاص، عدا قذائف الهاون التي لم تتوقف منذ الصباح الباكر، إلا أن الجميع كانوا في مواقعهم، والعمل يجري كخلية نحل لا تهدأ، والشباب المتعطش لإزاحة حكم الظلم يتوافدون إلى هناك تارة بطريقة سرّيّة، أو يدخلون ويخرجون ضمن حجج وحيل يخترعونها تارة لإقناع العساكر على حواجز النظام بأنهم أشخاص أبرياء لا علاقة لهم بالثورة، وتارة لإقناع والديهم أنهم في مكانٍ آمن، وبأنهم لا يقدرون ذبح دجاجة فكيف يحملون البندقية؟!

اصطحبني رامي إلى مدرسة استخدمها الثوار للتدريب العسكري، يومها عرفني بكثير من الشباب على تفاوت أعمارهم لتبدأ هناك حياتي الجديدة البعيدة كل البعد عن أجواء المكاتب وأجهزة التكييف والثياب المنسقة، والكلام المنمق التي كنت أعيشها قبل قدومي. كانت المدينة على دمارها أكثر طمأنينة وراحة بالنسبة لي من أي مدينة على وجه الأرض.

(7)

سألوني أين تعلمتِ أبجديّة الحياة؟
قلت لهم تعلمتها في ظل القصف والقنص والرصاص.

مؤسنة

رغم حظر التجوال المفروض، استطعت وبعض النساء أن نصنع من أمتار القماش السميكة سواتر تحمينا وتحمي الثوار من جحيم القنص.

الخياطة التي جدّت أمي واجتهدت كي تعلمني إياها، وكنت أتكاسل عن تعلمها وأتعبها وهي تلح عليّ في أن أدرك بعض مبادئها أصبحت اليوم من ركائز الحياة. فأثواب القماش امتدت بين يوم وليلة في الشوارع الرئيسية والفرعية، وبعد أن كان القناص يحصد منا في كل يومٍ نفساً طاهرة بريئة، بات يطلق النار عشوائياً وقلما يصيب منا، ومع ذلك كانت التعليمات مشددة من الرجال ألا تخرج إحدانا أو تدخل إلا تحت إجراءات أمنية مشددة، وألا تعبر الشوارع إلا بعد أن تخفض رأسها وتركض بأقصى سرعة، الأمر الذي كان يشعرني بالتحدي والمتعة، فأضحك، ويغضب عبد الرحمن لضحكي في موقف يمسك فيه قلبه خوفاً

وفزعاً علي من أن أصاب بسوء، فأخبره أن الأعمار بيد الله، وأنا سعيدة بأن أضفت هذه اللمسات التي تعلمتها شيئاً من الفائدة وساهمت بإنقاذ الأبرياء.
تعلمت أيضاً أن أنسى أحذيتي الأنثوية التي تكبدت عناء حملها من مكان لآخر، واكتفيت بحذاء رياضي مريح، كنت أعبر به الخراقات، تلك الفتحات ضمن الجدران التي قام الثوار بفتحها ليتنقلوا بأمان عبر الأبنية، دون أن يعرضوا أنفسهم لخطر السير ضمن أماكن مكشوفة، كانت مغامرة عظيمة التجوال ضمن تلك الفتحات، لأجد نفسي للحظة في غرفة نوم مهجورة، وبعد لحظات في غرفة نوم للأطفال قد قُصفت فتهدمت جدرانها ولم تتساقط صورهم ولا تحطمت الدمى التي تركوها، فكأنما الصور والدمى تستأنس ببعضها وتسرد كل ليلة شيئاً من قديم الذكريات.
لم أكن في الحقيقة مستمتعة بالسير فوق الدمار بقدر ما كنت مستمتعة بصناعة التحدي، وكان الفزع في عيني عبد الرحمن يرعبني، فقد كنت أتمنى لو أنه يطمئن قليلاً ويتعايش مع فكرة أن النساء قد يبدين الضعف، لكن قوتهن تتفجر فجأة من حيث لا يمكن لأحد أن يتكهن بذلك، وكنت أخبره بالأمر فلا يقتنع، ويقول لي:
أنى لكِ يا مؤمنة أن تواجهي وحش النظام ببنيتك الضعيفة هذه؟ نحن في معركة نواجه فيها ببنادقنا الدبابات والمدرعات، ونحارب بالعصي الطائرات.
وكنت أبتسم وألتزم الصمت، فلا مجال لمناقشة رجل غاضب، فكل ما عليّ هو أن أمتص نوبة غضبه لتعبر بهدوء، وأنعم بسعادة تحقيق رسالتي في الحياة معه وبقربه، كان ذلك أعلى رصيد للسعادة يمكن لامرأة مثلي أن تحققه، غير أن قلبي كان ينقبض أحياناً فأشعر أن سعادة كهذه قد لا تدوم.

(8)

نفجع بالمجزرة تلو المجزرة،
نتلاحم أجل، لكن أنّى لنا أن نبتسم؟!!

غياث

على طاولة أنيقة تتوسط قاعة مخصصة للاجتماعات، قد وضعت في آخرها شاشة عرض، وتوسطها شعار الكتيبة وراية لا إله إلا الله التي أخذت مكانها قرب علم الاستقلال، وبات كثير من الشباب يميلون لوضعها لتعبر عن انتمائهم، ولم أفهم بداية سبب التمسك بها حتى جلسنا ضمن غرفة نُسّقت بأناقة وإبداع دون تكلف أو إسراف، وتعرفت إلى حذيفة، الشخص المسؤول عن تدريب الشباب المنضمين حديثاً إلى الكتيبة.
شاب طويل أسمر البشرة، صاحب شخصية قوية متميزة، وصوت واضح ولغة تلفت من يسمعها تنمّ عن ثقافة واسعة.
قال لي حين سألته عن سبب هذا التغيير:
إنني لم أكن أحبذ تغيير الرايات، لكنهم في النهاية شباب أرخصوا أرواحهم في سبيل الله ليواجهوا نظاماً مجرماً، و « لا إله إلا الله محمد رسول الله» تلامس

أهدافهم وأرواحهم، وتشعرهم بطمأنينة المجاهد الذي حرص على كل التفاصيل، ويريد أن تكون أساس حياته ومنطلقها.

بدت لي علاقته وطيدة مع رامي، ومن خلال تجاذبهما أطراف الحديث فهمت أنهما قد خاضا بعض المعارك في جب الجندلي، وتعمقت أخوتهما تحت القصف والنوم قرب ركام المباني، والسير فوق الحرائق والرماد.

هي أخوّة جهاد طوت أعواماً واختصرتها ضمن مواقف صادقة، دفعت أحدهما كي يدافع عن أخيه بروحه فيحرص ألا يصاب بجرح صغير، وهي أخوّة التعاهد على نصرة الضعفاء والمظلومين والأبرياء، وهي أخوّة التضحية والمشاركة بالمال التي جعلت مفاتيح سيارة حذيفة دائماً في عهدة رامي كونه كثير التنقل، وكون حذيفة قد قرر الاستقرار ضمن نقطة واحدة ليكرس كل وقته لتدريب مجموعة من الشباب على السلاح والقوة البدنية، وأيضاً كانت مهمته غرس الإيمان والرغبة الحقيقية في نصرة الإسلام.

حذيفة وإن كان كما يبدو أكبر من رامي، غير أنه كان يتحدث معه دون حواجز، حديث الصديق لصديقه، يمازحه ويضحكان، ويفهم ما يريده بنظرة، أو يترجم صمته أحياناً فيصيب في الترجمة.

كنت أفكر وأنا أحاول اكتشاف هذا العالم الجديد كيف تتوطد مثل هذه العلاقات، وكيف لها أن تبنى إلا على الصدق والإخلاص، وكيف لأشخاص من هذا المعدن النفيس أن يجتمعوا على غير ميعاد، لا يجمعهم إلا حب الحرية لوطن أنهكه الظلم وآن لشمس العدالة فيه أن تشرق.

انتقلنا بعدها إلى ساحة المدرسة التي خصصت للتدريب، وجلسنا نتعلم فك

وتركيب البندقية مع مجموعة من شباب صغار كنت أبدو كما لو أنني في عمر آبائهم، وكان حذيفة يعلمنا بصبر ولا يمل من التكرار حتى يتأكد أن الجميع قد أتقنوا الدرس وتعلموه.

أنهيت تطبيقي العملي بسرعة، كنت سعيداً بإنجازي، لكنني لم أر ذلك في عيني حذيفة. قالوا لي بأنه قلما يبتسم منذ مجزرة جب الجندلي، فقد انتشل جثث الشهداء من الأطفال بيديه، وقد كانت رقابهم تقطر دماً وقد ذُبحوا بالسكاكين بلا أدنى رحمة، وبأنه بعد أن بذل جهداً ليس بالهين من أجل تأمين أكفانٍ لهم تحت جحيم من القصف، ولم يجدوا إلا قماشاً بلون أحمر، وبعد أن كفنوهم توحد لون الدم بلون الكفن، وقد قالوا بأنه بات يكره ارتداء الأحمر من الثياب منذ ذلك الحين، ويكره أن يراه على أحد.

لم يحتمل حذيفة رؤية أولئك الأطفال في أكفانهم الحمراء، وكان يتخيل باستمرار أن أطفاله مكانهم، فقرر إرسال زوجته وأطفاله الثلاثة إلى حيث يسكن أخوها خارج البلاد، فيما عزم أمره على البقاء ليدفع الظلم بروحه وحيداً، ببقايا مال ادخره، وبشيء من علم استطاع عبر السنين التي مضت أن يحصّله.

أشفقت عليه لوحدته، وأشفقت أكثر على نفسي، أنا الذي لم تكتمل فرحتي إلا بزفاف من نوع آخر، زفاف إلى الجنة، فكل ما كان يشغل عقلي هو ثأري لهديل وموقعه من تخطيطي وجهدي، أتراه يكون جزءاً من ثارات كثيرة، أم أن معاناتي فريدة. تأملاتي لم تَطُل، فقد أرغمني حديث رامي وحذيفة أن أغرق في عالم مختلف، وأن أبدأ معهما التفكير والتخطيط والعمل لتوطيد أسس ودعائم قوية نقدمها للثورة فلا يهدمها النظام مهما كان راسخاً ومتجذراً وقوياً.

(9)

اغرسني هنا شجرة زيتون
ان غبت ألف عام وعدت
ستجدني كما تركتني، منبع ضوء، لم أتغيّر!

مؤمنة

سرت مع عبد الرحمن نتجول فوق حطام أحد الأبنية، حيث بإمكاننا رؤية السماء عبر فتحات السقف التي أحدثتها القذائف، وحيث لا يوجد زجاج للنوافذ في بيت كان من أبهى المنازل، هكذا كانت نزهاتنا بوابة للتأملات وللأمل.

أخبرني أن البيت كان لرسام سكن هنا قبل الثورة بعام فقط، فترك بصمته في كل زاوية من المنزل.

فتح عبد الرحمن يديه وكأنه يستضيفني ضمن معرض متميز، وقال لي:

سأترك لكِ يا مؤمنة حرية الإبحار ضمن منزل يعتبرونه مدمراً، ولا أجده إلا مكاناً يضج حياة، ثمة روح تعلن عن نفسها في كل مكان.

كان منظر الشمس بألوانها المتفاوتة بين الشروق المتوهج والغروب الحالم غاية في السّحر وهي مرسومة مع تدرجات ألوان السّماء على كل نافذة، فكأنه صنع

عالماً مصغراً يضج حياة، وعلى الجدران رسم الأشجار واقفة بشموخ، ورسم فوقها غيماً ومطراً، وترك بعض أوراق الخريف متناثرة أسفل الجدار، وعلى جدار آخر رسم الربيع واختار شقائق النعمان، فكأنما قرأ الأحداث قبل حدوثها، أتراه ربيع وعاصفة وغيم وفقد وغروب ثم إشراق؟! تمنيت لو مكثت أكثر في ذلك المنزل الذي هوت جدرانه الخارجية، وهوى معها حلم آخر، أو ربما قراءة أخرى لمستقبل كلنا نحلم أن يغدو بنا أفضل.

لم أكن أدري هل قصف النظام هذا المنزل متعمداً هدم كل جميل؟

تلك الشجرة المرسومة بعناية قرب النافذة قد اخترقتها قذيفة، ورغم ذلك ظلت شامخة مع تهاوي بعض أغصانها وفروعها. أخذت أفكر كيف أن الأشجار لا تموت إلا واقفة، وإن تساقطت أغصانها فإن الجذور القوية لا تلبث تبني أغصاناً وفروعاً جديدة، فتزهر وتثمر، حتى الزجاج يمكن إذابته وفق درجة حرارة عالية وإعادة تشكيله ليغدو أجمل من السابق، وكذا هذا الجيل الذي يترقب نجاحنا في الثورة ليحقق حلمه، كم أخرناه عقوداً بصمتنا وسكوتنا عن الحق.

ألهمتني تلك الجدران الناطقة أن أفتش لي عن بصمة أعمق في هذا المكان، فقررت أن أجمع الأطفال لنعلب سوية في حديقة أي بيت عربي قديم، لأعلمهم كل يوم شيئاً جديداً، وأتعلم منهم، كنت على يقين أن قلوبهم النقية ستلهمني أن أصنع لهم أحلاماً من طراز مختلف.

(10)

صديقي
سأحملك على كتفي وأسير بك إلى نجاة،
ولن أتعثّر..
أعدك بألا أفعل.

رامي

فاجأنا نزول قذيفة لعينة على مسافة قريبة جدا مِنا حيث كنا نتدرّب، ولم أشعر بنفسي إلا وقد ارتطمت بالجدار، تناثر الغبار الكثيف وفتات الحجارة الناتجة عن تحطم الجدران، فغطت الرؤية للحظة، ولم أسمع سوى صوت السّعال.

تحاملت على نفسي وتفقدت على الفور غياث الذي كان جامداً في مكانه لا يتحرك، أرعبني منظره في البداية، ركضت إليه فوجدته مفتوح العينين لكن رأسه كان ينزف. اقتربت أكثر متحاملاً على نفسي من فجيعة ممكنة، ناديت الشباب لينقذونا، لكن لم يُجب أحد، تأكدت بأنه يتنفس، إلا أنه لا يزال تحت الصدمة. كلمته فأجابني بصوتٍ واهن أنه بخير، لكن رأسه يؤلمه، وكأن جمرة استقرت داخله، وبأنه يشعر بالدوار، حمدت الله أنه حي، لم أكن مستعداً

لخسارته، ولم أسمح لنفسي بالانهيار لفكرة إصابات الرأس ونهاياتها المشؤومة، كان عليّ تمالك نفسي وإنقاذه بأي وسيلة. حملته على كتفي وعبرت به الفتحات التي تصل بين الأبنية، كان الطريق قصيراً في العادة أعبره بلمح البصر، لكنني في تلك اللحظات شعرت وكأنه دهر، وبأنني أحمل جبلاً فوق كتفيّ إن تراخيت سيتحول إلى ركام.

كنت حريصاً أن أسير بثبات، شعرت أن الحياة تتلخص في تلك الخطوات التي أعبرها باتجاه نهاية درب مليء بالعثرات والمصاعب، فإما أن أثبت وأتحامل على ثقل الحمل والمواجع وصعوبة العثرات والسدود فأصل، أو أن أتراخى فيسقط، ونسقط كلنا معاً. خشيت عليه أن يتأذى، وأنا الذي أقنعته بالقدوم إلى هنا، وأنا أعبر فوق الأثاث تارة، أتسلق أو أنخفض تارة أخرى، حتى وجدت بعض الشباب الذين عرفوا بوجودنا هنا فأسرعوا لإنقاذنا، وسرعان ما أصبحنا في المشفى الميداني، تحت رعاية الطبيب حمزة.

على سرير عادي نظيف، ضمن شقة أرضية صغيرة، في مبنى لا يشتبه في أن يكون مشفى ميدانياً بشكل من الأشكال، استلقى غياث هادئاً مستسلماً لمصيره، فيما كان الطبيب الشاب حمزة يفحص رأسه ويعمل على تعقيمه بحذر، ولم أستطع التفوه بكلمة أو سؤاله عن حاله حتى لا أشتت انتباهه، لكنه سرعان ما طلب العدة، وبدأ يخيط الجرح ببراعة وخفّة. أنجز مهمته، وأسرع يغسل يديه ويعقم أدواته بانتباه ودقة ظاهرين، ولا يسمح للمسعفين بالقيام بهذا الدور، بل يطلب منهم الاهتمام ببقية الغرف، فيما توجه للاهتمام بحالة إسعافية أخرى.

كان غياث صامتاً واجماً، وكأنه في عالم آخر، حاولت التخفيف عنه بشيء من المرح، لكنه رسم ابتسامة طفيفة مجاملاً، واكتفى بحمد الله على النجاة.

كتب له الطبيب مضاداً حيوياً، وأخبره بأن جرحه سطحي، لا شيء يدعو للخوف أو القلق، وطلب منه الراحة، وحين خرجنا تحدث غياث أخيراً وقال لي إنه لم يفزع من الإصابة فقد أتى إلى هنا متوقعاً أي شيء، لكنه خشي أن يموت ولم يحقق شيئاً مما أراد أن يحققه لهذا الوطن.

قال لي وهو يتحسس الضماد على رأسه:

أتعلم يا رامي أن فكرة الموت بحد ذاتها رهيبة! إنها تُحدث نقلة نوعية في التفكير.

أنا لم أعد أريد ثأري الشخصي، فهناك ثأر أكبر يجب أن أقاتل لأجله.

سألني غياث عن الطبيب حمزة، وقال لي بأنه يعرفه على الأغلب، فقد رآه مراراً في كلية الطب، عندما كان يأتي ليصطحب خطيبته التي كانت هي أيضاً طالبة في ذات الكلّيّة، أخبرته بأنه طالب طب في الحقيقة لم يتخرج بعد، وصل في دراسته للسنة الرابعة، ولكنه تركها مضطراً لما وجد الحاجة تدعو لأن يكون طبيباً ميدانياً، فيسد ثغرة تركها أطباء رحلوا ناجين بأنفسهم بعيداً عن جحيم الموت والاعتقال في سورية.

كان أكثر شخص يعلم كم أن النظام ضيق على الأطباء، وطاردهم باعتقالات واستجوابات متهماً إياهم بمعالجة الإرهابيين، والتي جعلها النظام ذريعة للاعتقال والتعذيب دون مبرر، وكان حمزة من الفئة التي انتقلت خفية إلى مناطق فيها ثوار ليقوموا بعملهم الإنساني، ومنهم من ظل يعمل بكثير من سرية وخفاء، والأكثرية رحلوا غير آبهين بكثافة أعداد الجرحى الذين كانوا يحتاجون إلى

طبيب واحد ليصمدوا ويظلوا على قيد الحياة..

حمزة شخص غامض كثير التكتم على معلوماته الشخصية، وقد علمت بأنه ترك والديه في مكان ما تحت سيطرة النظام، فيما غامر وتجند لخدمة الناس، تعلم حمل السلاح والتصويب بدقة، واقتنى مسدساً خاصاً يخفيه في درجه كما يقول لأوقات الطوارئ، وهو الشخص الذي لم يعرف النوم إلا قليلاً منذ أن بدأ القصف، فالجرحى يتوافدون إلى عدة مشاف ميدانية، وإصاباتهم على درجات متفاوتة، ولا يقوم على العناية بهم سوى قليل من الأطباء الذين أعلنوا النفير لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

في هذه الفترة التي كنا نتقلب فيها ما بين شهداء وجرحى، كان مبعوثو الأمم المتحدة في طريقهم إلينا للتحقق والتوثيق لجرائم النظام.

يوم قدومهم كنا نتابع وكأننا على الضفة الأخرى من العالم، نحاول أن نستشف ما يمكن أن تؤول إليه الأمور، والتي كان الغموض يلفها من كل ناحية، وكنت أتوق للقاء ضحى التي كانت غارقة هي الأخرى بأعمال تضاعفت وازداد فيها العبء بسبب النزوح، فلم نعد نلتقي بل نتحدث بين حين وآخر عبر الإنترنت وكأن أميالاً من المسافات تفصلنا عن بعضنا وإن كان الهدف يجعلنا قلباً واحداً في مكانين مختلفين، يقوم بمهمتين تتكاملان على اختلافهما.

(11)

كم أرثي لهذا العالم القلق..
ناموا بهدوء فإننا نعمل بطمأنينة هنا.

رامي

ضمن كتلة سكنية باتت لنا نحن الثوار في حي القصور، وفي الفترات القصيرة التي كنا نسرقها للراحة بين مناوبات الحراسة على الجبهات، جلست أحتسي الشاي على أريكة اخترقتها قذيفة، فحولت نصفها الأول إلى تل من القطن، والنصف الثاني ظل سليماً معافى، وأتابع على ضوء التلفاز الخافت الذي استطعنا تشغيله ببطارية كبيرة حملناها إلى هناك، أتابع مع بعض الرفاق أخبار مبعوثي الأمم المتحدة وقد أرسلوا وفداً إلى حمص ليتحقق من جرائم النظام الواضحة، وإن كنت كبقية الشباب الذين تحلقوا حول الشاشة مثلي، ووقفوا ساكنين كأن على رؤوسهم الطير يتابعون النشرات الإخبارية من قنوات شتى، غير معوّلين عليها بشيء، وغير آملين بنتائج مرضية.

حذيفة نفسه استطاع مقابلتهم والتحدث إليهم كونه أكثرنا طلاقة بالانجليزية، غير أنه لم تتح له فترة كافية ليوضح لهم خطورة الوضع، أو إنهم لم يرغبوا أصلاً في ذلك.

كنت وكذلك جميع الشباب على قناعة بأن القصف وإطلاق النار واضح الوجهة والمصدر، هم وحدهم لم يثبتوا بأننا نُذبح، كان علينا أخذهم إلى حيث المجازر والبيوت المحترقة، وأن ننبش القبور لنريهم آثار الرصاص والتعذيب على جثث شهدائنا، لكننا لم نفعل، كنا نرى العالم عبر تلك الشاشة الصغيرة، على بُعد أمتار من الجيش، في مكانٍ منسي، بعيون آملة أن تصنع النصر بنفسها، وألا تستجديه أو تستعيره وألا تتسوله أيضاً.

كل ما فعلناه أننا أطفأنا البطارية التي باتت عزاءنا في ظل انقطاع الكهرباء الدائم، وعاد كل منا إلى مهامه، ثبات الشباب المجاهدين على جبهاتهم كان رائعاً، لا شيء كان يقودهم أو يحركهم في هذه المعركة أكبر من إيمان عميق بالله أنهم أصحاب حق، ومن واجبهم الدفاع عنه حتى النهاية.

وقد كانت مهمتي الأكثر صعوبة هي التردد على منزل والديّ وتفقدهما، وإقناعهما وإقناع ضحى أن الأمور تسير على ما يرام، لأقضي مزيداً من الليالي التي خارج المنزل. وإن كان غضب ضحى مني يعكرني، فقد كانت ترعبني فكرة أن يغضب أبي مني، فأحاول التماس رضاه بمحاولات أقرب ما تكون للفشل، وكان يبدو لي راضياً مادمت أمامه، غير أن صراخه كان يعلو في اللحظة التي أضع فيها يدي على قبضة الباب الخارجي للمنزل خارجاً، وفي الحقيقة لم يعد سريري النظيف يغريني، ولا طعام أمي وحلواها الشهية التي كانت تتفنن في صناعتها حالما تراني لتدفعني للبقاء، كنت كمن يتقلب على جمر الشوق للعمل، وكثيراً ما كنت أتسلل من فراشي قبل استيقاظهم فجراً، لأتجنب صعوبة المواجهة، قلبي ظل يراجعني بقسوة بين واجبين، لكن حبي لقضية نمت كنبتة أسطورية في داخلي

وضربت جذورها عميقاً أرغمني أن أتابع ونظري مصوب للأمام، مانعاً نفسي بإصرار أن ألتفت إلى الخلف.

جلست أساعد البقية في إعداد ما توفر بين أيدينا لطعام الغداء، تنبهت إلى أن علاقتي بالشباب هنا ازدادت متانة وثقة وعمقاً، لم أتخيل يوماً أن أقابل أشخاصاً في مدينتي يحملون هذه الشجاعة والغيرة لأجل الحق، كلهم مثلي تركوا الحياة الرتيبة خلفهم وقرروا أن يصنعوا عالماً أفضل، أن يؤسسوا لحياة تختلف عن التي عشناها جميعاً في ظل نظام البعث وحكمه.

كان نضال يقطع الخضار، وحذيفة يطهو الأرز، وغياث يقوم بتجهيز الغرفة وتنظيفها، وحذيفة يساعد أيضاً في التنظيف لا حواجز تمنع أحداً منا من ممارسة إتسانيته كما يحب، وقد بدا لي معسكراً جديداً يختلف عن حياة الخدمة العسكرية الإلزامية التي عانى كل شاب سوري من ويلات الذل فيها، هنا حرية اختيار، وحرية قرار، واجتماع وعمل لأجل الحرية. الأمر الذي جعلني أحب البقاء هنا وأرتاح في بيئة فيها من السمو والإباء والقيم العظيمة الشيء الكثير، فقررت المكوث قربهم ومعهم أطول وقت ممكن.

(12)

وتأبى الحياة مهما ابتعدت
الا أن تعيدني إليها تلميذاً
فكيف إن توافقت الثورة والحياة
على فتح مدرسة جديدة؟!

غياث

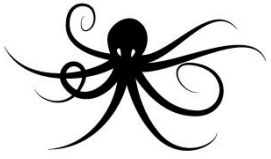

في تاريخ ٩-٦-٢٠١٢م بدأ النظام يمدّ أذرعه ليحيط بحمص القديمة فيجهز على الثورة فيها كأخطبوط شرس، كنت جالساً في مقر الكتيبة مع رامي وحذيفة، نحاول تنظيم بعض الأمور الإدارية، ونتشاور في تأمين ما نقص من سلاح أو ذخيرة ضمن المناوشات اليومية التي كانت تحصل على الجبهات بيننا وبين النظام، حتى أتى أحد الشباب بوجه شاحب، لا يكاد يلتقط أنفاسه، وأكّد لنا أن النظام قد سد كل المنافذ بشكل نهائي، ولم يدع للتحرك خارج نطاق حمص القديمة والخالدية أي مخرج، ويبدو أنه لا يلوي على خير. في تلك اللحظة لم أستطع استيعاب جو الصدمة السائد، فأجهزة اللاسلكي لم تتوقف منذ الصباح تخبرنا عن تحركات مريبة عند المنافذ والجبهات، ويبدو أن الوضع قد استحال من المناوشات

المتقطعة إلى حرب معلنة لا رجوع عنها. قال لنا حذيفة وهو منهمك في تتبع الأخبار والإشراف على توزيع الشباب إن التخوف الأكبر كان من أن تطوق المدينة القديمة من جميع الجهات، كما طوق النظام من قبل حيّ بابا عمرو الثائر، وأنهكه قصفاً وهجوماً حتى اضطر ثواره للانسحاب منه في ليلة عاصفة مظلمة، ليكمل النظام مهامه في ارتكاب المجازر، والإعدامات الميدانية، وإحراق البيوت وانتهاك الأعراض.

نهض حذيفة على الفور حاملاً جعبته وبندقيته وقال إن علينا أن نتوجه جميعاً إلى الجبهات لنقف درعاً ضد أية هجمة، طلب من رامي أن يذهب باتجاه، وهو في الآخر، وأن يجمع كل الشباب المقاتلين، ويطلعهم على الوضع، وعلى ضرورة الاستنفار من أجل حماية الأهالي المحاصرين وخاصة النساء والأطفال، وحملني المسؤولية قائلاً:

لقد آن أوان عملك الجاد يا غياث، اذهب وحاول المساعدة في سرية الألغام. طلب مني وعيناه تفيضان همة وتفاؤلاً أن أتعلم كل ما يمكنني تعلمه من مهندس متميز هناك يدعى نضال، واستحلفني بالله أن أعمل بحذر وانتباه، فالوضع لا يحتمل أي خطأ، أجبته وانطلقت لأبدأ رحلتي الجديدة في عالم آخر لم أتخيل يوماً أن أكون ضمنه.

كانت غرفة متواضعة تحت الأرض عبارة عن ورشة صغيرة، يعمل فيها ثلاثة من الشبان لم أتبين أيهم نضال فهو لا يختلف كثيراً عنهم في الهيئة الخارجية، الثلاثة وجوههم مشرقة هادئة، والثلاثة يضعون نظارات طبية، وهناك مسحة ابتسامة على وجوههم أو أنني تخيلت ذلك، وهم في نفس العمر، أقل من

الثلاثين بقليل، غير أن نضال كان يعمل على حاسب محمول، ويتابع معهم، يوجه بجد، ويمسح قطرات العرق المنسكبة على جبينه وكأنه غارق في عالم آخر. يوم اقتحمت عالمهم عرفتهم على نفسي، ولم يكن ثمة وقت لتعارف عميق، على الفور، سألني نضال عن تخصصي، وعن معلوماتي العامة، وقال، عليك أن تدخل ضمن أجواء العمل وتنسجم معها أولاً، ثم سيكون علينا التطوير إن كتب الله لنا عمراً.

كان علي أن أجلس معهم كتلميذ صغير، لأحاول فهم ما يجري، وسرعان ما تفاءلت وأنا أرى إنجازاتهم المتميزة ضمن إمكاناتهم المتواضعة، فقررت ألا أدع نضالاً حتى أتعلم منه كل ما يجب أن أتعلمه.

في العالم الخارجي عن ورشتنا كانت شلالات الدم تجري في أرضية المشافي الميدانية، الجرحى كثر، والقصف في ازدياد، يشرف عليهم الطبيب حمزة، يعالجهم بالأمل ريثما يتوفر للحالات الصعبة إمكانية لنقلهم تحت الخطر من مكانٍ لآخر، كنت أغبط حمزة على معنوياته العالية دائماً تحت الضغوط، وأتمنى لو كنت ممرضاً صغيراً يتلقى التعليمات منه، فأقضي الوقت أتعلم فن إدارة الأزمات، وكيفية التغلب على الضغوط في أسوأ الأحوال، حتى وإن لم أحصل على قسط من النوم أو الراحة. كانت تصل به الأحوال أحياناً للنوم جالساً، وتكفيه إغفاءة لمدة عشرة دقائق كي يستيقظ بنشاطه الكامل، وكم يغيظني رؤية من يستطيع ما لا أستطيعه، وقد بدا لي فعلياً أن الأساتذة هنا كثر، والمهام التي تحتاج أساتذة من أمثالهم فوق الحد المتاح، فكان الشباب يقومون بعدة مهام، من إسعاف أو تأمين للأسر.. أطفالاً ونساءاً وشيوخاً، أو في مجال الحراسة على الجبهات.

في بداية مكوثي هنا كان نزول الصواريخ عنيفاً يشعرني بارتجاج الأرض، وتهاوي السماء فوق رأسي. صراخ الأطفال الذي كان يصم الآذان يشطرني نصفين، نصف يود بكل جارحة أن ينقذهم وينتشلهم من هذه الأزمة، ونصف آخر يشعر بالعجز، وكأن كل قيود الأرض تكبلني.

اجتمعنا كما نفعل كل ليلة، لنفكر ونتشاور ونتحدث في محاولة لإجلائهم عبر تدخل دولي آمن بأي شكل ممكن، فصورة المجازر هي التي استقرت في ذاكرة كل منا، ورائحة الجثث المحترقة، وصرخات الأطفال، ونظراتهم المذعورة، فضلاً عن نحيب الأمهات الذي يقطع نياط القلب.

سمعنا صوت انطلاق صواريخ أرض أرض وهبوطها ن حولنا، فأخذنا نحدق في وجوه بعضنا ونفكر، أترانا نقضي ليلتنا فوق التراب أم تحت الركام! وكيف يمكننا مواجهة سلاح كهذا بأسلحتنا الخفيفة؟!

راحت تتساقط أبنية أمام أعيننا وفيها أهلها، ويسقط جرحى، ويرتقي شهداء. وكانت مهامنا تتراوح ما بين مواجهة مباشرة وقتال، أو عمل على الإسعاف وإنقاذ الجرحى، فلا مكان لقاعد عاجز هنا.

بقع الدماء رهيبة حين تملأ العتبات والسيارات والطرقات.. المآذن تنادي على من يتبرع بالدم من كل الفئات، رائحة الدم المراق تزكم الأنف في كل مكان، رائحة الموت مهيمنة، وحمص القديمة معزولة عن الخارج، ونحن محاصرون داخلها، الجميع مهيأ للمواجهة، غير أن المصير مجهول.

لم يكن لدينا وقت للتفكير ولا لاستيعاب ما يجري، ولا حتى للبكاء، ولم نكن لنهدأ عن العمل لحظة واحدة.

لم أصدق أنني تعافيت من جرحي، حتى أسرعت أعمل مع رامي جنباً إلى جنب، ننقل المصابين تحت الخطر، ونساعد في دفن الجثث، ونحاول تأمين الطعام وإيصاله لمن يرابطون على الجبهات ولا يستطيعون ترك مواقعهم للحظة، فالجيش متربص يبحث عن ثغرة للنفاذ.

حاول كثير من الشبان معنا التواصل مع الأمم المتحدة لإجلاء العائلات التي حبست تحت الخطر، لكن تلك المحاولات لم تنجح، وكان الرد يصلنا دائماً أن المنطقة خطرة، ولا مجال للمجازفة فلا ضمانات في عدم توجيه النظام نيرانه إليهم، ولذلك قررنا جميعاً أن نطوي تلك الورقة، وأن نعمل على إيجاد حلول بديلة بكل السبل الممكنة.

كانت فكرة دخول النظام واقتحام جنوده للأحياء وما قد يرتكبه من مجازر أو جرائم، هي الهم الأول لدينا، وبعد اجتماعات سريعة مكثفة نسقنا لها وأعددناها، وبعد أن درسنا كل الخيارات المتاحة، كان الرأي الأوحد هو تهريب بعض العائلات من نساء وأطفال وجرحى عن طريق بساتين الغوطة والقرابيص[4].

بدأنا تنظيم العمل بسريّة وجدّ، فتجند فريق منا لفرز الأسماء التي ترغب بالمغادرة، وفريق آخر قرر مرافقتهم والعودة تحت خطر القنص ليرافق غيرهم بشجاعة نادرة، وبدأت العائلات تُجلى تحت ستار الليل سيراً على الأقدام في طريق وعر، ونجحت في الليلة الأولى والثانية، وفي الليلة الثالثة فُجعنا بخبر

4) حي القرابيص: هو حي يقع شمال مدينة حمص السورية. يقع الحي بالقرب من منطقة البساتين، ويعد هذا الحي عقدة مواصلات هامة في المدينة، وهو من الأحياء التي شهدت حراكاً شعبياً كبيراً مناهضاً لنظام بشار الأسد في الفترة 1102وحتى الآن، وقد تعرض للكثير من القصف والتدمير نتيجة لذلك.

استشهاد صبية وخطيبها كانا على بُعد أمتار من الوصول، يومها أيقنت أن بقية الحلم قد يتحقق في الجنة.

(13)

ما هي الأهمية التي أمثلها بالنسبة لنظام يتزلزل،
كي يحاربني بالقذائف والصّواريخ؟!
ماذا يغيظهم مني سوى كوني امرأة ثائرة؟!

مؤمنة

قضيت ليلة من القصف العنيف أكتب وصيت ي على ضوء شمعة خافتة. لم أشأ مناقشة عبد الرحمن في أي شيء، وهو الذي قد ازداد إلحاحه في أن أغادر مع العائلات عبر البساتين. كتابتي للوصية كان جوابي الوحيد الصامت على أسئلته، وابتسامتي التي حرصت ألا أخفيها لئلا يظن بأني قد جزعت، فعلى العكس تماماً أنا اليوم أعيش أجمل لحظات العمر ضمن أهداف جديدة رسمتها، فقد تعلمت حمل السلاح، وأصبحت أضع البندقية على كتفي كل يوم وأنا أقوم بأعمالي المنزلية، وأواصل حلمي في كيفية دعمي لزوجي في جهاده، فلا أدعه يسبقني إلى الجنة بل ندخلها سوية جنباً إلى جنب.

في صباح ذلك اليوم الكئيب ٢٥-٦-٢٠١٢ الذي لن أنساه أبداً ما حييت ودعني

عبد الرحمن ومضى إلى مهامه بعد أن أوصاني ألا أغادر غرفة الجلوس تحسباً من القصف، فهي أكثر غرف المنزل أماناً.

أغلق الباب ومضى، وكاد النعاس يقتلني، ومصحفي في يدي أريد أن أكمل قراءة سورة الأنفال، كدت أغفو على الأريكة في غرفة الجلوس، أنا التي لم أنم أخط وصية بشعور مختلف، غير أنني انتفضت فجأة على وقع سقوط قذيفة قريبة من المبنى الذي كنت وحيدة فيه. وما إن خرجت، حتى نزلت قذيفة مكان جلوسي في ذات الغرفة الآمنة، وانتقلت إلى المطبخ، فنزلت قذيفة في الغرفة التي لجأت إليها، وخرجت مرعوبة من المطبخ، لأجد المطبخ يُستهدف، وكأنما القذائف تطاردني من كل ناحية، والدخان يغشي الرؤية فلا أتحسس سوى الجدران وأحاول التقاط أنفاسي بصعوبة، وقفت للحظة ذاهلة حائرة ماذا أفعل، عدت سريعاً لنفس الغرفة التي قصفت لأخرج جلبابي وحجابي، وقررت النزول من الشقة إلى الطابق السفلي فهو أكثر أماناً، وفي ذات اللحظة اقتحمت قذيفة أخرى الشرفة، وأخذتُ أرتجف، وأحاول في ذات الوقت أن أتجلد وأحتفظ بشجاعتها، واتجهت إلى باب الشقة، لينزل الصاروخ في المبنى أخيراً محدثاً رجّة ودويّاً رهيباً.. ويشعرني في لحظتها أنني قد انتقلت إلى الدار الآخرة..

بدأت لحظتها لا شعورياً بالدعاء، ولم يسعفني لساني إلا بدعاء يونس في الظلمات.

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، كرّرتها كثيراً بقلب معلّق بحبائل الرجاء.

واستطعت السير والحركة، ونزلت متحاملة على نفسي إلى الطابق السفلي، الذي انقلب ما فيه رأساً على عقب، وبدا كتلال رمادية من الركام، أخذت بعض النظرات الخاطفة بحثاً عن مأمن، كنت وحيدة مشتتة التفكير، ولم أجد

أمامي سوى خزانة كبيرة للملابس، فقررت على الفور الاستقرار داخلها.

بقيت في ظلمات تلك الخزانة ضمن مبنى يُقصف بعنف، خمس ساعات متواصلة، لم أدر كيف عبرت بي كمسيرة من الضوء حافلة بالدعاء والرجاء والقرب من الله، تحسست جيبي، ولم أصدّق حين وجدت كتيب حصن المسلم داخله، وكأنه هدية الرحمن لي في لحظة الشدة.

أمسكته وكأنني أمسك كنزاً، وبدأت أفتش ضمن نور طفيف تسلل من الخارج في أوراقه كتائهٍ يبحث عن مخرج.

وجدت بخط عريض قد كُتب: دعاء من خاف السلطان، وأدهشني أن أجده في توقيت كهذا، في مكان كهذا، وبدأت أردد بقلبي وكل جوارحي.

«الله أكبر. الله أعز من خلقه جميعاً، الله أعز مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو، الممسك السماوات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه؛ من شر عبدك فلان، وجنوده وأتباعه وأشياعه من الجن والإنس. اللهم كن لي جاراً من شرهم، جل ثناؤك، وعز جارك، وتبارك اسمك، ولا إله غيرك».

كلما سقطت قذيفة كنت أقول لنفسي.. من يمسك السموات سيمسك السقف أن يقع فوقي، فأشعر بالسكينة، وأتابع القراءة، ومضت تلك الساعات في تأمل ومناجاة، حتى قررت أخيراً الخروج من الخزانة. نظرت مجدداً حولي، فوجدت في الغرفة ماء. توضأت به وصليت الظهر فوق الركام، كنت أظنها صلاتي الأخيرة، وما أن انتهيت حتى سمعت صوت عبد الرحمن مختلطاً بأصوات رفاقه ينادون عليّ.. وانتفضتُ لأجيب بأعلى صوتي، وحينها عرفت أن الله تعالى أذن بالفرج.

خرجت ناجية بفضل الله لم يصبني جرح واحد، وغابت فرحتي بنجاتي حين

أخبرني عبد الرحمن أن علي الخروج دون أي نقاش، فآخر دفعة من الأسر التي يتم إجلاؤها ستخرج الليلة من حمص القديمة إلى الغوطة.

لم يشفع عنده بكائي، فقد كان مشغول الذهن بمشكلات كثيرة، رضخت للأمر تحت صدمة ما حدث، وفهمت يومها أن الشأن أعقد من أحلامي وأمنياتي فاستسلمت للقرار على مضض.

(14)

لا أحد منهم قد اختار الوداع..
لكن الوداع هو الذي اختارهم..
ورغم ذلك، لا شيء سيفرقهم.

رامي

سار عبد الرحمن مع بعض الرجال ليودعوا زوجاتهم وتوجهوا وتوجهت معهم إلى مركز التجمع كنقطة لانطلاقها وإخراجها من الحصار، وذلك بعد ساعتين من السير المتعثر فوق الركام.

نظرت إلى المكان حولي فلم أجده آمناً من نزول أي صاروخ، فستحدث فجيعة إن حدث ذلك لا قدر الله، قلت ذلك لعبد الرحمن الذي لاحظ كم كان القبو كان متصدعاً من الداخل من آثار القصف، فقال لي متحاملاً على نفسه: وهل علينا يا رامي إلا أن نأخذ بالأسباب؟! إنه أكثر الأمكنة أماناً حالياً، والأوضاع لا تحتمل كثرة التنقل من مكان لآخر.

تركته لحزنه وحاولت عمل شيء ما يحتوي الوضع المتوتر، فالتصدع الحقيقي كان في قلوب الحاضرين، المودِّعين أهلهم والرّاحلين، وبكاء الأطفال أحدث غصّة..

ودموع النساء المغادرات تحولت إلى بكاء أكثر وضوحاً وما عادت تجف!

صاروخ آخر باغتنا، وسقط على مقربة من المبنى، فأحدث فزعاً هائلاً في نفوس الأطفال وأمهاتهم.. وتحطم على أثره زجاج المبنى..

نزلت مع عبد الرحمن نخبرهم أن جهزوا أنفسكم، فلابد من الإسراع، فالخطر كل لحظة يزداد..

كانت مهمتنا إجلاء العائلات إلى حي القرابيص المجاور لحي جورة الشياح[5] الذي كان يقصف حينها بعنف.. الصعوبة والتحدي أمام الجميع كانت في قطع طريق يسده ركام المباني المهدمة..

ببطء وانتباه شديد أوصلناهم إلى بيت يقطن فيه المجاهدون في القرابيص ليكون استراحة مؤقتة.. فقد كان هذا البيت هو نقطة الانطلاق..

في الخارج حاولنا التغلب على شعور القلق، استخرنا الله تعالى، وطلب عبد الرحمن من جميع الحاضرين أن يصلوا صلاة الاستخارة ويسألوا الله الثبات في الأمر، فيما كان حذيفة مشغولاً بتنسيق مسألة الطريق والعبور الأكثر أمناً..

وأتت التعليمات بعد الاعتماد على الله وحده، أن ينتبهوا إلى الشوارع التي هي عرضة لرصاص القناصة.. فلابد من الركض والإسراع في عبورها..

5) جورة الشياح حي كبير من أحياء مدينة حمص في سوريا ويقع في مركز المدينة بين باب السوق عند ساعة حمص القديمة وجامع خالد بن الوليد ويضم الكثير من المعالم.

و قد سميت جورة الشياح لقب على حمود الخليل الذي جاء من منطقة الشياح الموجودة في لبنان الذي كان هارباً من الأتراك عام 6191 بعدما شنق الشهيد عبد الكريم الخليل وكان حمود الخليل مستشارا له.

عقب الثورة السورية 3102/3/81 قامت قوات النظام بتدمير الحي بشكل كامل مستخدمةً جميع أنواع الأسلحة الثقيلة و الصواريخ , بعد تهجير سكان الحي المعادين للنظام . يذكر ان الحي واحد من 41 حي من أحياء حمص المحاصرة التي خضعت لحصار قوات النظام السوري و للتدمير المنهجي .

ونزل الطبيب حمزة الذي أصرَّ أن يرافقنا تحسّباً لأي طارئ، وطلب من النساء اللواتي يحملن أطفالاً رضّعاً أن يعطوهم دواءً خفيفاً تركيبته من أعشاب تساعد على النوم والاسترخاء، لكيلا يصدروا صوتاً أثناء المسير، فينبهوا العدو، ويتسببوا بكارثة لا قدر الله..

وحانت ساعة الرحيل، وبدأت التعليمات تأخذ أكبر طابع من الجديّة والمسؤولية:

سنسير من هذا الطريق ابتداءً، ثم سندخل في بساتين القرابيص التي تصلنا بحي الغوطة.

انتبهوا، فالجيش متوزع على أطراف البساتين، يجب أن لا يشعروا بوجودكم بأي شكل من الأشكال..

ضعوا في جيوب أولادكم أوراقاً فيها أرقام هواتف عائلاتكم خارج الحصار، وذلك في حال حصول فقد أو استشهد أحد الأبوين أو كلاهما، ليوصلوهم إلى من يعتني بهم..

لم تكن الإجابة سوى بارتفاع أصوات البكاء للكبار والصغار معاً، ضمن حالة من الفجيعة والذهول، وكأنهم غير مصدقين لما يحدث!

بكاء الأمهات جعل الاطفال يصرخون، مع أن بعضهم أصغر من أن يفهم ما يحدث.

(15)

تركت قلبي عندكم..
اسقه كل فجر بإيمان تعاهدنا أن ننميه.
حتى تعيده ذات يوم وقد بنيت العالم كله في داخله.

مؤمنة

كنت منزوية عن الجميع أفكر وحدي كيف أودعه؟ وأحلامي؟ وجنتي؟ وجهادي؟ أأترك كل شيء وأمضي هكذا؟! ياله من وداع لم أخطط له، أهكذا تطوى القصص الجميلة داخل الأقبية المعتمة، وتتصدع القلوب وتتشظى كزجاج نوافذ لم تستطع أن تسرب النور فضلاً عن أن تحمينا؟!

وبينما كنت مستغرقة في هواجسي، سمعت أحد الأولاد الصغار قربي يكلم أخاه باكياً..

- هل سنموت اليوم يا زين؟ وما ذنبنا نحن؟ ماذا فعلنا لنُقتل؟!!

أخرجتني تساؤلات ذلك الطفل البريئة من التفكير بنفسي وذكرتني بالحلم الكبير، وأشعرتني حينها أن هناك مسؤولية تدفعني من أعماقي كي أفعل شيئاً من أجلهم..

توجهت بدايةً إلى الأمهات بالخطاب، وطلبت منهن تمالك أنفسهن لأجل الصّغار، لكن أحداً لم يستجب لكلامي فالموقف أصعب من أن يتم استيعابه بسهولة!

وعندما فقدت الأمل في أن أجد من يصغي إلي، قررت التوجه إلى الأطفال، وكم كانت استجاباتهم مختلفة!

جمعتهم معاً، وجلسوا على الأرض وقد شكلوا حلقة دائرية، وسألتهم بمودة:

ما رأيكم أن أحكي لكم قصة؟!!

أبدى البعض تجاوبه، وآخرون أحجموا، لكنني وما إن بدأت بسرد القصّة حتى انضم الجميع إلي دون استثناء، وجلسوا منصتين وكأن على رؤوسهم الطير..

سردت لهم قصة سيدنا يونس وعليه السلام، وكيف أنجاه الله من بطن الحوت بدعائه.

قفز زَين الذي كان مصغياً بكل حواسه قائلاً:

إن قلنا مثله هل سننجو ونصل إلى الغوطة ولا يرانا القناص؟!

إن شاء الله، الله قادر أن ينجينا كما أنجاه.

طلب الطفلُ مني ترديد الدعاء، وبدأ الأطفال جميعاً بترديده، وكم أدهشني أنهم عندما سمعوا صوت القصف، لم يتوقفوا عن الدعاء، بل باتت أصواتهم أعلى، وكأنهم يريدون أن يغطوا على صوت القذائف اللعينة..

كانت إحدى الصغيرات تحاول أن تحفظ الدعاء، فقالت لي:

سأحفظ بدايته وأختي تحفظ ما بقي منه.

واتجه طفل لأمه بيقينٍ فطري يبشرها بأنه وجد الحل، وطلب من والدته أن تحفظه..

صلينا جميعاً صلاة العشاء ودعونا بدعاء الاستخارة.. ونحن في صلاتنا حان موعد الخروج، وقد كان على دفعات، وخرجت مع آخر دفعة ستخرج في ذلك اليوم، وعصف زلزال عنيف داخل قلبي، أيعقل أن أودعه فلا نلتقي أبداً؟ أيعقل أنها النهاية؟!

أمسك زَين الطفل الصغير الذي كان يحاور أخاه بيدي، وشعرت أنني أنا الطفلة التي تحتاج لمن يحتوي وجعها ويمسك بيدها، وسرنا مع البقية مسافة قليلة، ثم ركبنا سيارة (سوزوكي) وجلست مع الأطفال في الجزء المكشوف من السيارة، ولكن بعد خمس دقائق من الانطلاق تعطلت السيارة فجأة، والجزء الذي أجلس فيه مع الأولاد كان مكشوفاً على القناص..

وبدأ الرصاص يتطاير أمام عيني، فكنت أغمضهما وأنطق بالشهادة، ويخيل إلي أنني فقدت الحياة، ثم أفتحهما لأواجه كابوس تهدئة الأطفال الذين علا صوت صراخهم وبكائهم.

صرخ بنا أحد الثوار:

اقفزوا من جوانب السيارة!

صرخ الأطفال بصوت عالٍ جداً، وتمسكوا جميعاً بأيدي بعضهم وأمسكت باثنين منهم لأحتويهم وقفزنا ونجونا من الرصاص.

استأنفت السيارة المسير، ومن ثم كان السير على الأقدام.

الظلام كان شديداً، لا يمكن تمييز الشوارع من خلاله، وكان الثوار يسيرون قربنا للدلالة والحماية، إحدى العجائز علقت قدمها بشيء ما في الأرض، فأشعل أحدهم ضوءً خفيفاً جداً ليحاول مساعدتها، وإذا بصفير الهاون باتجاهنا، وكأن

موقعنا قد كُشف..

دفع أحد الثوار بقدمه باب أحد المحلات وطلب منا الدخول بسرعة.

كانت القذائف تنهال على الشارع الذي كنا نسير عبره، واستمر القصف نصف ساعة تقريباً، وجميعنا نتخبط ما بين هواجس الإبادة والموت المحقق، وبين التفاؤل بكون القصف في موعده اليومي ولا غرابة..

ساعتان وعاودنا المسير.. ومع كل عبور لشارع يطل على قناص كنا نركض فرادى مسرعين.. حتى وصلنا إلى بساتين القرابيص ، حيث كانت أقرب النقاط من الجيش.

كنت أنظر للسماء وأكلم نفسي في صمت.. وشعور بالظلم أعمق ما يكون، وأنا الشاهدة اليوم على ظلم كل هؤلاء المُبعدين عن ديارهم وأهلهم.. ومع ذلك فقد أمدني هذا الشعور بقوة خفيّة، فدعوة المظلوم لا تُرد، فامتد في قلبي يقين كبير أننا نحن المنصورون وإن طال الزمن..

ونحن نسير ضمن البساتين الموحشة، بدأ زين في تلك اللحظات بالبكاء، خفت أن يسمع أحد صوته.. ضغطت على يده، وسألته:

- ما بك يا زين؟

- لم أجد الورقة التي كتب بها رقم بيت جدي، ماذا إن أضاعني أبي وأمي؟ من سيعرفني؟!!

مسحت رأسه وأجابت برفق وهدوء مطمئنة.

أنا أعرفك.. كفاكَ بكاءً.

كان والد زين ووالدته وإخوته قد سبقونا في السيارة التي خرجت قبلنا بدقائق،

وقد عهدوا إليّ بزين كونهم يعرفون زوجي جيداً وهو مؤتمن عندهم، كما إنهم لم يستطيعوا اصطحابه ليسيطروا على إخوته، فكان هو أمانة ثقيلة في رحلتي.

استمر المسير ووصلنا إلى آخر شارع يجب عبوره من أمام القناص..

كان شارعاً طويلاً، وقد قُتل كثيرون وهم يقطعونه، فكان المتوجب علينا الحذر الشديد.. وكان التعب قد أخذ منا مأخذه بعد أربع ساعات من المشي المتواصل..

ترددت كثيراً قبل عبور الشارع، فقد عرفت أنه تحديداً سيفصلني عن حمص القديمة إلى أجل غير مسمى.

ابتلعت آلامي، وأمسكت يد زين بقوة.. وقال لي:

- أنا مستعد هيا بنا.. قد رددت الدعاء طول الطريق، سننجو كما نجى سيدنا يونس..

قطعنا الطريق ووصلنا أخيراً إلى حي الغوطة أخيراً..

نزل أهل الغوطة إلى الشوارع ، وكانت الساعة قد أصبحت الثانية ليلاً تقريباً.. كانوا يهنئوننا بسلامتنا، ويقدمون لنا الماء، ومنهم من فتح منزله ليدخلنا إليه وهم لا يعرفوننا..

زين قرر حينها ترك يدي بعد أن اطمأن وعاد إلى حضن والدته، وتسمرت أنا مكاني، فقد لفت نظري منظر طفلة صغيرة كانت معنا لكنها حافية..

ناديتها وسألتها..

أين حذاؤكِ يا صغيرتي؟

فقدته أثناء المسير !!

سرتِ كل هذا الطريق الوَعِر حافية؟ ولماذا لم تخبري أحداً كي يحملك؟
قالوا لي أن أسير بصمتٍ ولا أهمس.. فخفت أن يسمعني الجيش إن قلت لأحد!!
عانقتها ووقفت أنظر إلى حمص القديمة التي فارقتها منذ قليل، وكأنني تركت قلبي هناك
اقتربت والدة ووالد زين يسألانني أين وجهتي ليوصلاني إليها، وللحظات... شعرت أنني فقدت الذاكرة!
لم أعد أتذكر أي شيء..
لا بيت خالتي ولا بيت خالي، ولا حتى بيت خالة أمي!! نسيت كل شيء!!
وكأنني أدخل الحي لأول مرة في حياتي..
طلبا مني البقاء معهما حتى يأتي من يسأل عني من أهلي، وذهبت معهم وأنا أسمع صوت القذائف والصواريخ تنهال على جورة الشياح وباقي أحياء حمص القديمة، يومها لم أدر كيف فقدت ذاكرتي مؤقتاً، كان ألمي الأوحد شعوري بأنني قد خذلتهم حين قبلت أن أتركهم وحدهم هناك. أيعقل أنني تركت ذاكرتي عندهم ومضيت؟!
عادت لي ذاكرتي بعد مدّة قصيرة، وتمنيت لو أنها لم تعد أبداً.

(16)

نحن لا ترهبنا فكرة الموت،
فهي من أجل الحياة.
ما يرعبنا أن ينتهي المشوار
ولم نُغيّر جذرياً كل شاذّ عن الإنسانية.

غياث

أصبحت لدي رفقة جديدة من المفكات والمسامير واللواصق والمسننات، مجموعة هائلة من الأفكار عصفت في عقلي بعد أول تجربة لتصنيع الألغام، كنت أفكر بأهمية هذا الأمر إن نحن أتقناه، وكم سيحمل عنا عبء الذخيرة التي يتكبد فيها الشباب العناء لإيصالها عبر طرق مختلفة.
شعرت أن تعاملنا مع السلاح بات مختلفاً، والبندقية باتت جزءاً لا يتجزأ من شخصية أي ثائر هنا، يعتني بها، وينظفها كل ليلة بالزيت، ويتأملها بحب، وقد يتغزل بها، وينام أيضاً على عزفها، وهو يتوعد العدو أن يذيقه من ويلاتها كما أذاق الضعفاء من شره أربعين سنة، وجعلهم يعيشون في سجن كبير يدعى

سورية.

قبل أن يطبق الحصار أبوابه علينا كنت أرى رامي يخاطر بروحه، ويتفنن في الأماكن التي يخبئ فيها بعض السلاح والذخيرة، أمر لا يقدر عليه إلا الشجعان أو المجانين الذين لا يفكرون بمدى خطورة ما يقومون به تحت عيون أجهزة رقابة النظام المشددة، ولا أظنه كان إلا من فئة الشجعان، وشجاعته الأكبر التي كنت أغبطه عليها هي في محاولاته التي كان يقوم بها مع والديه ليدعاه ينطلق وشأنه، وهما قد ربياه على الرفاهية والدلال، ولم يستوعبا أن يرياه فجأة غائباً عن ناظريهما، أو أن يعود إلى البيت منهكاً فيغفو على الأريكة بثيابه المليئة بغبار السعي على المحتاجين، وتأمين المقاتلين، وحمل الجرحى إلى المشافي.

كانت تؤرقني كل تلك الأعباء التي يحملها شخص واحد، وأفكر كثيراً في طريقة ما أكثر أماناً من السير أمام رصاص القناصة، أو حيلة تواجه آليات الغدر والقتل، دون أن نخسر خيرة شبابنا، ولم أستطع أن أصرّح بما يدور في عقلي من صراع وخوف وحرص ألا أخسر أحداً، أنا الذي خسرت شطري الثاني ولم أستطع وضع حد لخسارات وطن تتالى.

مع كل ليلة أتجول عبر مواقع الإنترنت، وأفكر بعدد الشهداء، كم أسرة باتت حزينة؟ كم طفل أمسوا بلا آباء أو ربما بلا أمهات أيضاً؟ كم من أم فجعت بابنها؟ كم من بيت دُمّر أو هُجّر أهله؟ وكم من حرّة اغتصبت؟!

السؤال الأكبر الذي كان يستحوذ على تفكيري، هل يعقل أن يتحول هذا الحصار الصغير إلى حصار أكبر؟! هل ستنقطع بنا السبل يوماً بشكل نهائي أم أن هنالك دائماً مخرج؟!

ذهبت إلى حذيفة أستفسر منه عن تقديراته للوضع، واستحلفته بالله ألا يتحدث بصيغة رفع المعنويات، كان يصمت ويفكر وكأنه شارد في عالم آخر.

قال بصوت يختنق:

كما قلت لك من قبل يا غياث، فإن قبضة النظام العسكرية إن هي ظلّت مطبقة علينا هكذا فإننا لن نستطيع الصمود أكثر من أسبوعين! ورغم ذلك فعلينا أن نكون على قدر المسؤولية، ونواجه الوضع مهما تأزم.

أسبوعان فقط؟! أهذا كل شيء؟!

كان عليَّ مواجهة فكرة الموت دون تجميل أو مواربة، الموت وما يتبعه من حساب وجزاء.

تحت وابل القصف والنيران تتبدى الصورة أوضح مما يمكن تخيله، وتظهر الحقائق جليّة، ولسبب ما تنهال الصّور لتأخذ دور المحقق الذي يعذّب سجينه بتذكيره بما فعله..

لسبب ما لا أعرفه، تذكرت أطفال غزّة الذين خذلتهم يوماً، وأرضيت ضميري بحفنة من النقود أرسلتها إليهم أو بدعاء العاجزين السلبيين.

تلك الدماء الطاهرة التي سُفكت من غير وجه حق، والتي تعاملت وغيري معها وكأن الحدث لا يعنينا، أو كأننا نعيش خارج كوكب الإنسانية، ها هي تسفك مجدداً وأمام أعيننا جميعاً، فكيف لنا أن نتحرك؟ وماذا علينا أن نفعل؟!

بدا حذيفة رغم ذلك متماسكاً هادئاً رغم حالة الرعب السارية، والشائعات الكثيرة التي انتشرت بأننا قد نباد في أية لحظة، كان القرآن الكريم لا يفارقه في خلواته، بعيداً حيث لا يراه أحد، وكنت أجده يحمل القرآن حقاً في أفعاله، في جولاته

على الشباب المقاتل، في كلماته الدافعة للعمل، في رفع الهمم، في اختياره الأشخاص الملائمين للتنظيم والقيادة الميدانية والتدريب، وعند المساء كان يفتح حاسبه المحمول ويتباحث مع من يثق بهم من أشخاص خارج الحصار، ويتابع آخر الأخبار ومستجداتها محاولاً أن يرى العالم من منظور داخلي وخارجي، ليحسن تقييم الوضع والعمل ضمنه.

أما أنا فقد أصبح لدي هاجس جديد استحوذ على كل تفكيري، ولم يجعلني أغفو ولا للحظة منذ يومين، ألا وهو موضوع إيجاد أنفاق ما تحت الأرض، وتفعيلها بالشكل المناسب، لتكون شريان الحياة الباعث على الصمود والأمان في آنٍ معاً.

(17)

وهذا البيت الجديد واسع
باتّساع الكون يا أمي.!!

رامي

مضى شهر على الحصار، ورغم حالة القلق التي أصبحت أقل بقليل من تلك الحالة التي سادت في بدايته، وعلى الرغم من جهدنا المضن في تقسيم أوقات المناوبات، وتوزيع الشباب المقاتل عليها، وإعطاؤهم التعليمات المشددة أن يكونوا حصناً لهذه الأرض، على الرغم من كل هذا القلق إلا أنني شعرت أن حمص القديمة باتت مثل بيت واسع كبير، أطبق علينا جميعاً فجأة، وأصبحنا فيه بمن معنا من أسرٍ رفضت مغادرة منازلها، وجرحى لم يحتمل الأمر أخذهم عبر البساتين، وفئات مختلفة من البشر ضمن مكانٍ واحد، كأسرة واحدة، اختلفت هيئات أفرادها وانتماءاتهم وأفكارهم ولكن جمعهم هذا المكان وهذا الزمان، ليصهرهم رغماً عنهم في بوتقة واحدة.

فوجئت بي ضحى محاصراً مع الشباب ضمن حدث رهيب، أحاديثنا على الهاتف كانت مقتضبة، وإن تخللتها عبارات تفيض باللوم والعتب، بين خوفها علي من

أن أصاب بمكروه، ورغبتها في أن أخرج سالماً من أي أذى، وهي التي بدأت تتوجس من حصارنا خيفة فتستفسر من تعرف حول وضع حمص، فكان الجميع يؤكدون أنه وضع صعب للغاية، وقد لا تكتب النجاة للمحاصرين إن لم تحدث معجزة.

لم تؤمن ضحى بالمعجزات لكنني آمنت بها، فكنت أطمئنها، وأخبرها بأننا نبذل ما بوسعنا لنواجه المعركة ونردع النظام، ولم تكن تصدقني لكنها بعد كثير من خصام تستسلم وتقول لي بأنني حر في قراري لكن علي تحمل نتائجه.

كان غياث وحذيفة يضحكان مني كلما أغلقت محادثاتي عبر الإنترنت مع ضحى، وهم يرون في ملامحي كثيراً من التوتر والإحباط والغضب، فيقولان إن الحب يفعل بالمرء أكثر من ذلك، وكنت أجيبهما بأن هناك حب أكبر قادني إلى هنا، وهو يستحق كل التضحية مهما رأى الآخرون عكس ذلك، فكان غياث يقول:

ستبقى ترى هذا المكان يا رامي بمنظور عاشق لا يرى إلا الجمال في محبوبته.

وكان غياث يُستفز من سيطرتي على أعصابي مع كل فاجعة تحدث، وقد حدث ذات يوم أن أتت فئة ممن حملوا سلاحهم حميّة، وانضموا إلى الكتائب هنا في حمص القديمة، حدث أن وجدوا في المكان بُعداً عن عيون الرقباء، فقرروا أن يسطوا على بعض البيوت المغلقة، ويسرقوا منها بعض الحاجيات.

الأمر الذي ترك عند الجميع هنا ردة فعل غاضبة جداً، وكنت أشاطرهم الغضب، ولا أشاطرهم فكرة أن الأمور سيئة بالمطلق، وأقول لهم إن هناك دائماً فسحة من نور تدفعنا لئلا نفقد الأمل مهما حصل. أما عن الأمور السيئة فإنها ستحدث باستمرار، لا يمكننا بثورة واحدة إيقاف كل الأشخاص السيئين في عالمنا، ولا أن

ننشر الفضائل والأخلاق بمجرد أن هتفنا بالتكبير وبكلمة التوحيد في مظاهراتنا، لابد من أن تصهرنا التجربة بعد التجربة، والمشكلة بعد المشكلة، والأزمة بعد الأزمة حتى تنقينا وتصقلنا.

وبالفعل، كنا مع حدوث كل مشكلة نتعلم، ونتطور أكثر.

كان التحدي الحقيقي في التطبيق العملي، والحد من التداعيات السيئة، ومحاولة إحداث توازن في الحياة يكون مقبولاً رغم الزلزلة الحاصلة.

رحت أتابع عن كثب، وتفاؤل في آنٍ معاً، عقلي مشغولٌ بأشياء كثيرة، فقد أصبح لدي هنا أصدقاء من كل الفئات والأعمار والطبقات، لكل فئة منهم ما يلامس روحي فيدفعني للتفاعل معهم رغماً عني.

لقد أحببت العم أبا صفوان، وكنت أقضي الوقت في بيته العربي القديم أسقي الليمونة والنارنجة والياسمينة وشتلات الغاردينيا والورد البلدي، وأعود وقد ملأت كفّيّ منها فأعطر غرفة المبيت التي نقيم فيها، وهو قد أحبّنا كثيراً وتفاعل معنا كشباب ثائر، بداية تخوّف وتذمر من وجود مقرّنا قربه، وكنّا نسمع عبارات تضجره بآذاننا، ولما اقتربنا منه وتعرفنا إليه، وعرفناه بأنفسنا، وجدنا تاريخ المدينة ملخصاً في ذاكرته، وغضون وجهه، وفي اللغز الذي تشي به عيناه البنيتان، وهو الذي قرر ألا ينزح من بيته لأنه مؤمن بتمسكه بحقه، وأن على الظالم الرحيل، قال لنا إنه عاش منذ طفولته هنا، وكبر وشاب هنا، وتزوج وأنجب وزوّج أولاده هنا، وكانت أعراسهم تحت الياسمينة من أحلى أعراس المدينة، وبأنه وزّع ملبّس العرس بيديه، وودعهم حين قرروا السفر بحثاً عن حياة أفضل، فهذا الوطن لم يعطهم فرصة ليجدوا مستقبلهم على أرضه، وهو آثر البقاء متآلفاً مع

كل شيء، بانتظار زياراتهم كل إجازة صيف، كان يسرد قصته ويمسح دمعه تأثراً.
يومها طلبت منه أن يقبل بنا أبناء جدداً له، وأن يكلفنا بأية خدمة تلزمه، وبعد مدّة بات يتردد على المقر، نحتسي الشاي أو القهوة العربية الرائعة التي يصنعها بيديه، يمازحنا ويضاحكنا، ويتفقدنا بأسمائنا واحداً واحداً، وهو حريص على كل منا ألا يصبنا أذى من معارك الجبهات، وبات جواره أُنس لنا، وقد اكتشفت بأنه أحب جوارنا وكان يساعدنا بالطهي أحياناً، ويحمل أكياس القمامة من أمام المقر قبل أن يأتي الشباب لحملها إلى المكان المخصص، ويقول دائماً..
أنتم تفعلون واجبكم، وأنا لدي واجباتي أيضاً، فاسمحوا لي أن أشعر بإنسانيتي.
العم أبو صفوان أصبح بعد مدة المسؤول عن المقبرة، يودع من يعتبرهم أولاده واحداً تلو الآخر، يبكيهم كأبٍ ملتاع، يتذكر صفاتهم ومحاسنهم وعبارات قصيرة تتسع لها ذاكرته كان يتبادلها معهم.
هو يستقبل الشهداء، وهو من يودعهم قبورهم، ويوصيهم بالشفاعة لنا وأن يسلموا على من سبقوهم.
أخذت أراقبه وهو منغمس في مهمته تلك، وقد وجد قطعاً من روحه بين قبور الراحلين، وقد زرع بعض شتلات الزهر، فحول المكان إلى جنة.
قال لي يوم رآني أراقبه، وكأنه لمح نظرة حزن في عيني:
لا تحزن يا ولدي، لا تحزن يا رامي، هذا المكان هو قطعة من الجنة، وكيف لا يكون وهو لأبطال ضحوا بأرواحهم لتحرير أوطانهم.
ورمقني بنظرة ثم أشاح بوجهه ليخفي دمعة، وقال:
ثم إنهم الآن أحياء عند ربهم يرزقون، فلا تحزن.

(18)

لم تكن حاجتي لعالم أكثر أماناً.
بل حاجتي لعالم فيه كرامة.
كيف يعتقدون أن هناك
أمنٌ وأمان ما بلا كرامة؟!

مؤمنة

خرجت من جحيم الموت إلى عالم أكثر أماناً كما قالوا.
حي الوعر[6] الذي أوى إليه معظم النازحين من أحياء حمص القديمة، وباتت مدارسه مأوى للعائلات المهجّرة، وحوت بيوته أوجاع أسر كثيرة خرجت بحال أسوأ من الحال الذي خرجتُ به، سمعتُ قصصاً كثيرة وأنا في طريقي إلى هناك، عن أسر تركوا طعام العشاء على المائدة وخرجوا ذات قصف على أمل أن يعودوا في اليوم التالي فيتناولونه، خرجوا بثيابهم التي عليهم، خرجوا حفاة

6) حي الوعر: يقع حي الوعر غربي مدينة حمص السورية ... والاسم الرسمي لهذا الحي هو « حمص الجديدة»
وفي ربيع العام 2102 نزح عدد كبير من سكان أحياء حمص القديمة إلى الوعر بسبب تصاعد حدة المعارك بين الجيش السوري ومقاتلي المعارضة ليتضاعف عدد سكان الحي إلى حوالي 003 ألف .
وفي 72 تشرين الأول 3102 تم تطويق الحي وفرض حصار محكم عليه وسط اشتباكات عنيفة وخاصة في الجزيرة السابعة التي دمرت معظم أبنيتها وأبراجها بشكل شبه كامل

عراة من الفزع، ومن فكرة ارتكاب مجزرة في أية لحظة.

منهم من نسي مفتاحه على باب الدار، ومنهم من ترك باب بيته مفتوحاً ولم يفكر إلا بالنجاة، الأمر مؤقت، أيام قليلة ونعود!

هذه كانت عبارة أكثرهم تشاؤماً، أما البقية فكانوا متفائلين بأن تمضي الزوبعة سريعاً، ليعودوا إلى أغطيتهم ووسائدهم، صورهم ومقتنياتهم، ألعاب أطفالهم، كتبهم وثيابهم، أموالهم وحليّهم.

غير أن الأمل تضاءل كثيراً مع بدء الحصار، دخلتُ حي الوعر وكأنني لا أعرفه من كثافة السّكّان، فكأنما حمص كلها قد اجتمعت هناك، فيما خلت بقية الشوارع في باقي الأحياء، فهناك من قرر أن يغادر سورية ككل، وهناك من قرر الانسحاب إلى المدن الكبرى دمشق وحماة وحلب ريثما تهدأ الأوضاع.

الوعر أو حمص الجديدة كما تُسمى، استطاعت أن تحتضن أمّها حمص القديمة، وكانت تجاهد كي تحتوي وجعها بحنان.

دخلتُ الحي ولم أستطع التجوال أكثر، طلبت أن يسرع سائق الأجرة إلى بيت والدتي التي احترق قلبها من الخوف والترقب والانتظار، وهاتفي لم يهدأ، الجميع كانوا بانتظاري أنا العائدة من كوكب الجحيم الذي لم أره يوماً إلا جنة.

لم يطل مكوثي بين والدتي وإخوتي، كنت أريد الاطمئنان على زوجي وعلى بقية المحاصرين.

على طاولة متواضعة وضع عليها جهاز حاسوب قديم قررت أن أعتكف محاولة الاتصال به عبر الإنترنت، وهو كان يترقب بقلق وصولي خشية من مضايقات ممكنة أو فكرة اعتقال.

حين سمعتُ صوته انهمرت دموعي واحتبست الكلمات في حلقي، وهو.. شعرت به يبكي بصمت ويدّعي التجلّد كما فعل لحظة وداعنا.

تحامل على نفسه وطلب مني أن أظل شجاعة مهما حصل، وأن أسير على ذات الطريق الذي تعاهدنا أن نسير عليه معاً.

شعرت به يوصيني بطريقة غير مباشرة، وأغضبتني الفكرة، فكرة إبادتهم وانتصار النظام، فوجدت نفسي أحادثه بلهجة قوية، بأن الحصار سينتهي، وبأنهم سيَغلِبون، وبأن الله تعالى مع ناصر الحق ومهما ضاقت فسيؤذن بالفرج.

أنهيت المكالمة وتابعت بكائي، ثم تذكرت وصيته لي بالتجلد، فمسحت دموعي، وغسلت وجهي، وبدأت أدعو الله بحرقة لأجلهم، لأجلنا، ولأجل كل المظلومين.

كنت على يقين أن الدعاء بلا عمل لن يجدي، كان عليّ أن أفعل شيئاً، وألا أقف موقف المشاهد.

أمضيت الليلة أفكر، وعند الصباح، تذكرت ضحى خطيبة رامي التي أوصى زوجي أن ألتقي بها، وقال بأننا قد نتعاون لنصنع شيئاً مفيداً، ولم يمض يوم وليلة حتى تعرفت إلى ضحى وهدى التي كانت تعمل أيضاً بهمة في مجال الإغاثة والتعليم، وطلبتُ أن تتكرر اجتماعاتنا، وأن نخطط لتنظيم مهامنا في أسرع وقت.

(19)

كان يراها نافذة، يرى العالم من خلالها..
وكانت تراه بعالمها كوكباً
لا ينفذ الضوء عبر النوافذ إلا من خلالها.

راسي

كان عبد الرحمن مثلي، ومثل بقية الشباب الذين انقطعوا عن عائلاتهم، متواصلاً مع والديه وزوجته عبر الإنترنت، يتأنق كعادته في ملبسه كي تراه عبر الشاشة بأفضل حال، وينتقي كلماته بعناية ليبدد قلقها الدائم بتطمينات هادئة وادعة، ويخبرها كما أخبر ضحى باستمرار أن الأمور بخير، ساعده على ذلك عدم وجود من ينشر أخبار الإصابات المروّعة، ولا أنين الجرحى الذي يحرق الأكباد، ولا حتى مشاهد زفاف الشهداء الأبطال الذين كانوا يرحلون في صمت عبر مواكب مهيبة إلى مقبرة الشهداء، أو كانوا يدفنون على عجل تحت القصف، أو يؤجل دفنهم يوماً أو أكثر بسبب استحالة التنقل من مكانٍ لآخر. كان من الصعب أن يخبرها كم هي وجوههم مشعّة رغم انطفاء شعلة الحياة منها، لكنهم في الحقيقة عند الله أحياء. وكان الأصعب من ذلك كله، أن يخبرها بأن هناك شهداء يُدفنون بلا وجوه، بلا أطراف، ورغم ذلك يُزفّون بشيء من فرحٍ غريب، فرح النجاة

الأخير من عالم الامتحانات الصّعبة والكبيرة، إلى عالم الجوائز ونتائج الحصاد. كان موجعاً لي ولعبد الرحمن ولكل شاب هنا أن يخبر أهله أن الحصار أنِس بنا فطالَ، وباتت الشّهور تتابع علينا ضمنه دون بارقة أمل، وبأن المؤن تتناقص، وإن طال أكثر فسنشرف جميعاً على الهلاك، وبأن الذخيرة عندنا محدودة إلا القليل الذي يمر عبر الأنفاق، وأن المواد الطبية في تناقص أيضاً، والمعنويات ما بين مد وجزر، نلقن النظام درساً فننال منه ونشعر أن النصر في قبضتنا، أو يكثف هجماته بأسلحته الثقيلة فنشعر أنها أيامنا الأخيرة في هذه الحياة. نحن الذين كنا ننتظر أن نجد مدداً من إخوة لنا يساهمون في فك الحصار عنّا، لكن أياً من ذلك لم يكن.

ومع ذلك، كان عبد الرحمن في محادثاته مع زوجته كمعظمنا حين نتحدث مع أهلنا، نحاول الادعاء أن الأمور بخير، ونتصنع ابتسامة ومرحاً، لنتهرب من مواجهة مطالب الجميع لهم بالتخلي عن ما أتينا لأجله، فلا أحد يريد أن يضعف، والكلمات تُضعِف أحياناً.

ضحك عبد الرحمن بعد أن أنهى محادثته مع زوجته، لحظة التقت عيناه بعيني، فكأنما اجتمعت خيبتان في لحظة، وكنت قد أنهيت للتو محادثتي مع أمي ومع ضحى التي لم تكن بأقل من زوجة عبد الرحمن قلقاً وتوتراً، غير أن أخبار زوجة عبد الرحمن تدفع للتفاؤل، وهي مختلفة بدرجة كبيرة عن وصايا أمي التي لا نهاية لها. خاصة عندما أخبرني أن الفتيات يجتمعن كل يوم، ويتدربن على التمريض والإسعاف، تشرف عليهن مسعفة ميدانية دمشقية بارعة، تتنقل من مكان لآخر بهدف تدريب النساء على مهام الإسعاف، تعلمهن تضميد الجراح، وفتح

الأوردة، وحقن الإبر، وبأنها تعمل بجد مع صديقتها هدى، وقد دفعتها الأخيرة لأن تشارك بقوة مع الفتيات من أجل الثورة، لقد اكتشفت أنها هي هدى ذاتها الفتاة التي كانت تعمل معنا في المجال الإغاثي، تهتم بكفاية العائلات الفقيرة، وتزور أمهات الشهداء، وتنسق وتنظم للمظاهرات النسائية، والتي غابت يوم استشهدت هديل فما عدنا نراها فظنناها تخلت عن دورها غير أنها لم تفعل!

قال عبد الرحمن أن نصف الفتيات تعرضن لإغماء حين بدأ درس فتح الأوردة، وبأن المدربة غضبت أشد الغضب، وقالت: لم نعرف هذا عن حمص، لم نعرف إلا قوة رجالها وصلابتهم في وجه النظام، ونحن النساء في دمشق لنا قوة، فكيف تتركن هذا الدور وترتضين أن يقوم الرجال على أموركن ويحملن كل الأعباء، فيما تنتظرن كل شيء أن يصل إليكن جاهزاً؟

ونظرت إلى السيدة التي نسقت للدورة وأخبرتها أنها ترفض العمل مع فتيات مدللات!

ولم تكمل عبارتها حتى انهالت عليها الاعتذارات، وأسرعت الفتيات فغسلن وجوههن المصفرة فزعاً، وبدأن يتجاوبن ويحاولن ويتماسكن ويتابعن يوماً بعد آخر، حتى أتقنّ مبادئ الإسعاف.

أخبرني أنهن يتجولن مدارس النازحين، والتي باتت تحوي المئات من العائلات لا يسترها سوى سقف وجدران باردة، تفصل بينها طبقات النايلون التي طُبع عليها باللون الأزرق شعار المنظمات الإغاثية، ليكون اللون الوحيد الذي يُغطي جدران الأسمنت الباردة، فيزيدها برودة وجفوة..

زرن قرابة خمسة عشر مكاناً تم إخلاؤها للقادمين الجدد، أعداد هائلة، جراح

وقصص لا حصر لها، وازدحام حزين، يجمع دمع الفراق على أحياء هي قطعة من أرواح من تركوها، كل ذلك ترك في قلب مؤمنة وصديقاتها غصّة حرقة وحقد ونقمة، لا يشفيها إلا العمل على إنهاء هذا الظلم بأي ثمن، كل تلك الأحداث لم تجعل مؤمنة وهدى ومن معهما ينسين الألم بل يعملن على اجتيازه بكل استطاعة.

(20)

أيها النفق كن ظلماً حالك الظلمة
كن وعراً سُرهقاً
كن غامضاً كئيباً
أنا على ثقة أن الأقمار
ستُبعث ذات يوم من داخلك.

غياث

٢٠١٢-٧-٢٧

وقفتُ عند فتحة النفق قلقاً مثل أب ينتظر ولادة أول أبنائه، حدقت في ساعتي كئيباً، والتفتُّ إلى حذيفة متسائلاً عن المتبقي من الوقت ليصلوا، وأجاب بهدوء متعمّد..

القليل.. القليل فقط..

وجفت الكلمات في حلقي، وعقارب ساعتي كانت تشير إلى مرور ساعة إضافية دون أن يظهر أحد، وغصصت بفكرة أن يصابوا بمكروه، وسألت مجدداً بحضور رامي الذي كان يناولني شطيرة زعتر صغيرة وقد أضربت عن تناول أي طعام حتى أطمئن على سلامة الشباب، وكان رامي يؤكد ممازحاً أنني سأجدهم أمامي

إن ابتعدت قليلاً عن النفق، وتركت لهم فسحة للعبور، أو مجالاً للرؤية.

كنت أفكر في إمكانية كشف أمرهم وهم يعبرون، أو أن يصابوا بمكروه. ولكن لم تمض دقيقة حتى سمعت تكبيرات وصولهم ورأيتهم أمام عيني يتوافدون مع حمولتهم الثمينة، فلم أملك إلا أن أستقبلهم بسجدة شكر.

محمود كان من الشباب المتميزين الذين ساهموا في غربتهم عبر مجال الإعلام بشكل قوي وملفت للنظر، فوجهوا إبداعاتهم ومواهبهم للثورة، نقلوا القضية بذكاء، وواجهوا إعلام النظام الذي اعتاد الدجل، واجهوه بمرآة الحقيقة، فكان نتاجهم يستقطب المتابعين، ويغير نظرة الناس لكثير من القضايا والمشكلات الضبابية.

قبل أيام قليلة فقط أخبرني بأنه أصبح في سورية، وقد سمع بتفعيل الأنفاق ضمن الحصار، وبإمكانية دخوله إلينا، فقرر القيام بعملية نوعية، تقضي باقتحام الحصار عبر عدسته الخارقة. وصل محمود الشاب الأنيق ملطخاً بالأوحال والقذارة، حيث الأنفاق هي عبور ضمن المجارير التي كانت تصل بين أحياء المدينة، وصل وقد جف الدم في عروقي وأنا واقف عند نهاية النفق أنتظر سماع وقع أقدامه الطاهرة وكل من معه.

بعد حمام ساخن، وتناول وجبة خفيفة، جلس محمود ليحدثنا أنا وحذيفة ورامي عن مغامرته. فقد قضى أسبوعاً في الوعر، ومن ثم دقت ساعة القدوم إلى هنا، وكاد يجن من فرط الحماس والفرح، وبلهجته العفوية المحببة روى لنا قصته منذ البداية.

هناك يا غياث، وأمام النفق الذي يوصل إليكم، كنا نقف ننتظر الرحيل،

والانتقال من نار الانتظار إلى جنة العمل.

خرجنا بعد صلاة العشاء مباشرة، اغتسلت وقبلت رأس أمي، وسألتها الدعاء، وأسرعت خارجاً كي لا أرى دموعها. كان اجتماعنا بداية في شقة، حتى اكتمل العدد، ثم أتت سيارة أقلتنا إلى بساتين الوعر.

هناك كانت نسمات الليل هادئة لطيفة، لا يمكن مقاومتها، وصوت حفيف الأشجار كان خلاباً، وهناك تناولت أطيب كوب شاي في حياتي من رجل طيب يسكن مع أسرته في بيت مجاور تحت الخطر.

كانت أضواء المدينة تبدو خافتة من بعيد، تحيط حمص القديمة بهالة من نجوم كهربائية، وكأنها قلوبٌ تحتويها. الظلمة الرهيبة التي فرضت نفسها على تلك البقعة، أشعرتني بالرهبة، وبالقوة أيضاً، ففي هذا الامتداد المُظلم قلوبٌ تتوهّج نُوراً، قد عزمت أن تملأ هذه الأرض عدلاً بعد عقود من ظلمات بعضها فوق بعض.

وإذا كان الفتية الذين سيرحلون معي يتأهبون للمسير، كانت تستفزهم شاعريتي المفرطة، وحرصي على آلة التصوير أكثر من نفسي، وتأملاتي للسماء وما حولنا وكأنني قادم من المريخ أتعرف على مدينتي لأول مرة، وقد وضعت التوتر جانباً، فيما كانوا قلقين من فكرة دخول النفق وعدم الخروج منه أبداً..

كان معنا شاب طويل القامة، أسمر الوجه، له عينان لهما بريق يُلحظ في الظلام، قد جلس في منأى عن الجميع، وعلى ضوء خافت أخذ يقرأ آيات من القرآن، وهو محتمٍ بجدار قصير من الحجارة..

اقتربت منه ولم أشأ مقاطعته، ولم يلتفت لي ذلك الشّاب، بل تابع التلاوة

بهمسٍ، وقد تبين لي أنه يقرأ من سورة الكهف: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا* خالدين فيها لا يبغون عنها حولا* قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا* قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً».

آيات تلاها بصوت عذب، ولتلاوته الخافتة تلك جمال وسكينة، أضفت على العتمة سحراً خاصاً.

كنّا كفتية الكهف، هكذا شعرت، ونحن نحمل رسالتنا في قلوبنا، طلباً للنجاة من حاكم ظالم. كم تمنيت لو أسأل الشاب عن اسمه أو أتعرف إليه، لكن حساسية الموقف، لم تسمح بمسألة التعارف، فالأسماء وهمية، والكتمان هو الأساس، فارتأيت أن أؤجل التعارف إلى حين وصولنا إلى حمص القديمة.

أشار القائد علينا بالانطلاق وحانت ساعة الصِّفر. وإذ انتبه كل شاب منا لحمل أمتعته، أتى ذلك الشاب الذي كان يقرأ في المصحف دون أمتعة شخصية على الإطلاق، وطلب أن يحمل قسطاً إضافياً ويدخل به النّفق.

وانطلقنا وقد غيّبتنا ظلمة النفق، ورافقنا دعاء المودِّعين، ووجوه أمهاتنا الغارقة بالدمع لا يفارق أحداً منا.

كنت أظن أن ثلاثة كيلو مترات مسافة جد ضئيلة لنقطعها ونصل، لكن الحقيقة أن كل خطوة إلى هناك كانت بمنزلة التحدي مع الموت والقهر والحصار. النفق يا غياث يا صديقي العزيز ليس كما تراءى لي، وليس كما وصفوه لي أو حدثوني عنه. كان يحتاج إلى أطول حذاء ممكن لاجتيازه. وكان حذائي الرياضي رغم ذلك

جيداً، يؤهّلني للسير في مياه الصرف الصحي، وليس الحذاء هو الحل دائماً إذ لابد من رُوح رياضية لتقبّل كل لا يمكن احتماله من مفاجآت في مكان مغلق موبوء كذلك النفق.

قاطعه حذيفة قائلاً، وكأنه يفكر بصوت مرتفع:

من كان يتخيل أن نفقاً بتلك القذارة قد يقود إلى مكان بهذا الطهر!!

تابع محمود وهو يخبرنا عن حمل الأمتعة الثقيلة، وصحبة للغرباء، ومخاوف اكتشاف النظام لتحركاتهم، فقد كان عليهم أن يقطعوا مسافة من نهر العاصي سباحة، نعتمد فيها على عجلة ضخمة، نضع فيها الذخيرة ونتابع السير بحذر. خوض مغامرة كهذه يتطلب أن تضع ذكرياتك، وكل تفاصيل حياتك جانباً، وتتابع بتركيز محاولاً النجاة، النجاة فقط، لتنقذ غيرك.

أعظم ما تتمناه وأنت تضع خيار الموت أمام عينك، هو أن تدفن في قبر. أي قبر يزورك فيه من تحب، ولا تلبث ترفض حتى هذه الأمنية، فأنت مصرٌّ على النجاة.

كان علينا أن نعبر جزءً تغمره مياه العاصي..

تقدمنا بعضنا خلف بعض، نحاول التغلب على مياه تزداد عمقاً، وتيار يكاد يجرفنا.

لم يكن بالإمكان أن نلتفت حولنا، ولا أن ننادي بعضنا، الصمت ومتابعة الدليل كان هو الأمر الوحيد الذي علينا أن نحصر فيه تركيزنا وانتباهنا.

للحظة شعرت بالقلق على ذلك الشاب، وكانت عيناي تفتشان بقلق عنه، والتفت فجأة، وبصعوبة خلفي، لم أجده! بدأت أفكر في احتمالية غرقه، وكان

اللوم يعصف بي لم تركناه يغيب عن أنظارنا، لماذا لم نسر جنباً إلى جنب فلنعش سوية أو نموت سوية.

أسرعت جادّاً نحو الدليل، بات الكل يبحث عنه، دون جدوى.

كان التيار قد جرفه، وغرق، فلم يستطع أحد منا إنقاذه ولا حتى العثور على جثّته لدفنها، فكان البطل الغريق.

(21)

عارٌ على الحُرِّ أن لا تحركه المظالم..
فلا يصنع الزلزال ليقلب الأرض،
ثم يعيدها لتتوازن بشرعة الحق.

راسي

ذات غروب، والشمس تودعنا خلف المباني تاركة وهجاً ذهبياً خلفها، مررت بغياث ونضال وشباب الورشة أتفقد أحوالهم، فوجدتهم يجلسون تحت شجرة زيتون كبيرة ويتجاذبون أطراف الحديث.

نبرة صوت نضال وهو يتحدث متأثراً عن تجربته التي قادته إلى هنا جعلتني أسحب كرسياً وأنضم إليهم لأسمع القصّة. كنت شغوفاً بقصص الشباب الذين أعيش معهم تحت سماء واحدة، والذين يقاتلون معي لأجل قضية واحدة.

قال نضال:

كنت قبل شهور قليلة أخطط للسفر إلى خارج البلاد لأتابع دراساتي العليا هناك، كنت مؤمناً أن العلم سيغيّر كل شيء، سيهبني الكرامة والعزّة ويعطيني الحصانة فلا يؤذيني أحد، وأكسب احترام الجميع رغماً عنهم، لكن الثورة باغتت أحلامي، وحدث واحد جعلني أنتفض بكل كياني، حين رأيتهم يعتقلون دكتور

الجامعة الأوحد الذي كان يعمل معنا بسرّيّة تامة، ويخطط لنشاطات ثورية، صادف ذلك ذهابي إلى هناك لإجراء معاملات تحصيل شهادتي. توقفت سيارة الأمن فجأة، ونزل منها جنود بثيابهم العسكرية وسلاحهم، انتهكوا حرم الجامعة، ورافقهم الحارس إلى القاعة التي كان يعطي فيها الدكتور محاضرته، اقتحموها واقتادوه دون نقاش، و أشبعوه ضرباً بأسلحتهم وأحذيتهم على حد سواء أمام طلابه، ولم يتركوا سباباً إلا ورشقوه به ، ولم نعرف حينها ما هي التهمة، لكننا سمعناهم يتحدثون عن الحرية، عدوّتهم الحريّة..

قيدوه وبهمجية أقحموه داخل سيارة الأمن، واختفى عن أنظارنا بلمح البصر.

ساد التوتر والرعب، وعدت إلى منزلي أفكر في مصيره.

حاولت التقصي عنه فعرفت أن أسرته قد ذاقت المرّ وهي تفتش وتسأل عنه في فروع الأمن، وتدفع مئات الآلاف للمحامين كي يخرجوه أو حتى يأتوا بخبر عنه.. بعد أربعين يوماً اتصل أحد المحامين بابنه وطلب منه أن يتسلم جثّة أبيه من المشفى العسكري.

صعق الشّاب وذهب ليتحقق من صحّة الكلام، فلم يصدّق أن والده قد ودّع الحياة، حتى أخبروه أن الاسم صحيح، أسرع إلى مكان الجثة، أخرجوها له، وكشف عن وجهه، وكان مليئاً بالكدمات والندوب والحروق إلى درجة عانى فيها كثيراً كي يعرفه.

أجبروه أن يوقع على ورقة تقول إن العصابات المسلحة والإرهابيين هم الذين قتلوا والده، وإلا فلن يتسلّمه..

اضطر للتوقيع إكراماً لجثّة والده كي تُدفن.

لم يسمحوا لأسرته بمرافقته إلى قبره، حرموهم حتى من حقهم في تشييع مهيب.

لم نعرف سوى أنه دُفن بسرّيّة وصمت بإشراف اثنين من أسرته، وعلى الفور حزمت الأسرة حقائبها ورحلت إلى الخارج، ولم نعد نسمع عن أخبارهم أيّ شيء!

كنت أفكر كل ليلة في صمت، لمَ لم يسافر الدكتور ويغادر المدينة عند أول نذير بالخطر؟ ولماذا علي أن أنسحب وأترك بلادي تعاني الظلم في هذه اللحظات العصيبة؟ ألكي أنجو بنفسي؟

كنت لأجلس في مثل هذه اللحظات متسكعاً على مقهى في دولة أوروبية، أثرثر مع صديق بلغة أجنبية، وأحتسي القهوة وأخطط للزواج والاستقرار في منزل صغير جميل.. كنت سأحيا بلا قضيّة، وسأنسى أو أتناسى كلّ هذا الكم من الأسى. تُرى هل كنت سأحترم نفسي إن أنا نسيت؟.

نظر نضال في عيون الشباب المشدودة لحديثه، وقال لهم إنه يفهم تماماً السؤال الذي يتبادر إلى أذهانهم، أن بوسعي جني المال بسهولة فشهادتي تؤهلني لذلك، ولكنني لست من النوع الذي يرضيني أن أشاهد من بعيد، أنا أعشق التطبيق والمشاهدة والتجربة، أحب أن أكتشف بنفسي، وأن أتعلم بنفسي، وأن أبني المجد جنباً إلى جنب ممن يبنونه على الأرض، وإن كنت أكنّ الاحترام العميق لمن يرسلون المال ويؤمنونه، ومن يحاولون أن يعرضوا قضيتنا بصدق وضمير في المؤتمرات أو على نطاق الشعوب ليلفتوا نظر العالم إلى سوريّة، لكنها خيارات وكل ميسر لما خُلق له.

كلمات نضال أعادت للجميع ذكريات خاصة، قريبة أو بعيدة عن قصة نضال لكنها في النهاية تلتقي معه، ودعت الشباب ورافقني غياث في طريق العودة إلى

المقر، وقال لي بأنه كتم انطباعه الأول عني، فقد ظن بأن مهامي هنا تقتصر على الإغاثة، وقد أصبته بالصدمة كما قال حين ارتديت الجعبة وحملت السلاح، لكنه كتم دهشته كونه يعلم شغفي بمساعدة الفقراء والمنكوبين، شعرت من حديثه تخوفاً عليّ من أن أكون قد اقتنيت السلاح حماسة وتهوراً، فجلست على الرصيف وجلس قربي، وأخبرته قصتي. فأنا لم أضع ضمن مخططاتي وأهدافي القريبة موضوع السلاح، لكنني كنت أساعد بعد الثوار في إيصاله، وتدريجياً وجدت أن من الضروري أن أتعلم استعماله لأدافع بأقل تقدير عن نفسي، وبدأنا العمل بعد حدوث مجزرة ضمن حي ملاصق للأحياء الموالية للنظام، بعد أن عملنا على مساعدة الأهالي في الخروج دون أن يتعرض لهم أحد.

وكانت لي رفقة رائعة هناك، عشت معهم أجمل أيام حياتي على الإطلاق.

أخبرته كم كان يومنا حافلاً بالعمل، والتدريب والإعداد والمواجهات، وكل يوم كان يشعرنا أن هذه المدينة هي القلب، وبأن الدفاع عنها هو واجبنا، حتى السلاح أمنّا ثمنه بأنفسنا، فقد قدمت المال المدخر لمتابعة دراستي وخطبتي، واشتريت بارودة ولازلت أسدد بقية ثمنها إلى الآن، وصديقي كان في مخططاته الخطبة، لكنه عدل عنها وقدم ما كان يجب أن يكون مهراً لزوجته ودفعه ثمناً للذخيرة، واستشهد بعد أيام..

وصديق آخر استشهد أيضاً، وقد باع منزله حينها وقبض نصف ثمنه مقدماً وقدمه لقائد سريتنا، وبدأنا نقوم بهجمات منظمة ضد جنود النظام الذين لم يتوقفوا لحظة منذ بداية الثورة ولا حتى قبلها عن قتل الأبرياء وترويعهم واعتقال الشرفاء.

أخبرته أنني الآن أعشق البندقية، كما أعشق هذا الوطن، فكلما صوّبتها إلى وجوه المجرمين شعرتُ بجزءٍ من داخلي يتحرر.

كانت أياماً رائعة، من يرانا من بعيد يظنها أيام شقاء، لكنها كانت الأيام الأهم في حياتي، فقد تعرفت إلى شريحة من الشباب الطيبين الذين لم أقابلهم في جامعاتنا، ولم أتعرف إليهم في أحيائنا المترفة، شباب لديهم من صدق الفطرة والنقاء ما يجعلك تعجب لحالهم، وتحاول أن تتعلم منهم. لقد رافقتهم خطوة خطوة، كنت أبيت عندهم أياماً لأكتسب منهم مهارات وفنوناً لا تعلمني إياها إلا مدرسة الحياة. ولكن استمرت المعارك حتى سقطت جب الجندلي وعشيرة وكرم الزيتون[7] في أيدي النظام بعد معارك لم نستطع الصمود أمام سطوتها، وقد تعرضنا لخيانات كثيرة، في سلاح فاسد كان ينفجر بمن يحمله، أو شباب يتركون جبهاتهم ويرحلون وقد قرروا سريعاً بأنها معركة خاسرة، استطاع الجيش احتلال تلك الأحياء، فأفرغها من أهلها، وأحرق البيوت معلناً ألا عودة إلى هناك. كنت قربهم وهم يشاهدون ذلك السقوط المروع لأحياء صمدت في وجه الظلم وحاربته، كانت بيوتهم تحترق أمام أعينهم، وللحقيقة كانت قلوبهم معها تحترق أيضاً. كنا قلة، لا يتجاوز عددنا العشر، لا نستطيع الدفاع وحدنا، فكان أن قررنا أن نثبت أنفسنا مع ثوار آخرين على جبهة باب هود.

بتنا يومها في مبانٍ فارغة، على أرضية قاسية بلا أغطية، وشعرنا بقسوة الجوع ولسعات البرد، وكانوا معتادين على ذلك، وكان عليَّ أن أعتاد معهم لأتعلم،

7) هذه الأحياء خضع أهلها للتهجير وفرغت تماماً من أهلها بعد ارتكاب النظام لمجازر مروعة وذبحه للأطفال وإحراقه للبيوت بأهلها.

لأكـون رجـلاً، رغم أن بيـت والـدتي كان يبعـد عـني مسـافة أمتـار قليـلة، لكنـني شـعرت بالخيانـة إن أنا تركتهـم لمصيرهم، وذهبـت لآخـذ حمامـاً دافئـاً وأتنـاول طعامـاً ساخناً، وأنعـم بمحبـة أمي وإخـوتي، فيما هم يعانـون التشرد والتهجير والضيـاع. لقـد تعلمـت الكثـير... الكثـير جـداً...

كان غيـاث يصغي إليّ باهتمام، وكأنـه يحـاول أن يحلـل ويفكـر، نظـرة الريبـة والقلـق زالـت مـن عينيـه، وحلـت محلهـا دمعـة أشـفق أن تهطـل، وكنـت أتحـاشى التحديـق في عينيـه خجـلاً منـه أيضـاً، فـأنا لم أبـذل جهـداً كفايـة، ولـو كل واحـد منـا بـذل مـا عليـه لمـا كان مصير خطيبتـه هديـل مؤلم إلى هـذا الحـد.

(22)

لا يضير أن نموت كلنا لأجل أن تحيا فكرة.
ما قيمة العيش في زنزانة الذل وقهر الروح؟!
المهم أن نعرف كيف نحييها.

غياث

ليـلة جديـدة، والمعـارك تحتـدم، رشـقات الرصـاص مثـل قلـوب أمهاتنـا تثـور ثم تهـدأ، وقلوبنـا في حـالة ثـورة مسـتمرة، لا مجـال فيهـا للهـدوء أو الراحـة ولـو قليـلاً..

أدمنـت النظـرة إلى الـسّماء، نظـرة واحـدة تغسـل قلـبي المتعـب شـوقاً إلى أمي البعيـدة، وأيضـاً شـوقاً إلى هديـل.

رغم أنـني كنـت أرى القذائـف تنهـال أمـامي باللهـب. كانـت تعتريـني غرابـة أن قـدمي لا تتحـركان، بـل همـا راسختـان في الأرض، شيء مـا ضمـن صـوت القصـف والانفجـارات يطمئنـني. لم أشـعر بـشيء يحتـوي وجـعي أكـثر مـن التكبـيرات الـتي تمـلأ الفضـاء.

كان محمـود يقلـب الصـور ويتأملهـا شـارداً وقـد أتـت جولتـه ظهـيرة هـذا اليـوم في أحيـاء حمـص المحـاصرة بصيـد ثمـين، اسـتطاع اكتشـاف بـسمات جميـلة للأطفـال، وأزقـة يفـوح منهـا عبـق التـاريخ، ووجـوهٌ كهـلة لكنهـا مشرقـة، وصـور متفرقـة للدمـار،

كان يؤرشفها ويعرض بعضها على صفحات الإنترنت مبدياً عجبه مما رأى، فوجدناه يقول:

لقد ظننت وضع المحاصرة أفضل حالاً من أي مكان على هذه الأرض، لكنني اكتشفت بأن بينهم من لا يبالون بالدين، وبينهم من لا يبالي حتى بالأخلاق! عارٌ على الثورة أن تضم هؤلاء! لقد خاب أملي!!

كان حذيفة جالساً ينصت إليه باهتمام حتى فرغ من اعتراضه، فأجابه أنه لا يوجد عالم ملائكي بالمطلق، إنها حمص التي تحمل فئات الناس بأطيافهم كما تفعل أية مدينة أخرى، ونحن نخفق إن قيّمناها وكأنها أرض الفردوس، وقِبلة المجاهدين، فهي تحوي عقليات مختلفة، فيها التقي والفاجر، والمجاهد على بصيرة والمتهور، والذكي الحذق، والجاهل الغافل، وتاجر المخدرات وطالب الجامعة المتفوق، والصوفي والسلفي، والشيخ والتلميذ، والناسك والعابد، والأخرق والحكيم العاقل.

وسأل محمود الذي لم يقنعه تماماً كلام حذيفة بلهجة متوترة:

لماذا لا تتحد كل هذه الفئات؟ ولماذا نُحاصر فلا يأتينا مدد من الخارج؟! أخشى أننا نزهق أرواحنا بلا طائل.

لكن حذيفة بدا هادئاً ينصت إليه باهتمام حتى أفرغ جعبته من الغضب، ثم جلس يحدثه عن الخسائر المحتملة الأكثر فداحة من مجرد الانسحاب، فالتخوف شديد من انتقام النظام من الناس في المناطق التي يسيطر عليها، وهو اليوم يعتقل من يريد اعتقاله، ويقتل من يرغب بقتله ونحن هنا بسلاحنا نشكل تهديداً له ومصدر خطر يحسب له ألف حساب، ماذا إن خلت الساحة له،

وكيف سيكون مصير المدينة وقد قرر الانتقام، وما تجربة بابا عمرو والفظائع التي ارتكبها عنا ببعيد.

وكان محمود مستعجلاً يريد فكاكاً وحلاً، وكان جواب حذيفة مطمئناً رغم غياب ما يثير التفاؤل، ويقول باستمرار، لا حيلة لنا إلا الصبر، ولابد أن نكون من أدوات النصر، وأن ننحي خلافاتنا جانباً وهذا ليس سهلاً، ولكن بإمكاننا أن نجعله كذلك، فكل من نجدهم هنا رغم خلافاتهم، واختلافاتهم، قد اجتمعوا لإزالة الظلم.

أفكر أحياناً أن الثورة كانت فكرة خاطئة.

قالها محمود وهو يصوب نظره إلى الأرض الحجرية ويعبث بغصن زيتون قطعه من شجرة مجاورة، لكن حذيفة أجاب بحزم وهو يحدق في عيني محمود:

وقد تضيع المدينة وتنتهك الأعراض وتحصل المجازر إن توقفنا أو تراجعنا عن ثورتنا، لقد وصلنا إلى مرحلة اللاعودة، بعد صمت طال أربعين سنة من انتظار الفرج والسلبية بلا جدوى!

وصمت الاثنان لحظة، وكأن كل واحد منهما يفكر في كلام الآخر، وامتد الصمت ليلاً بأكمله، ولم تتحدث سوى لغة الحديد والنار، وأذّن الفجر والتفتُّ لأجدهما يغفوان متجاورين كأخوين، أحدهما مع أوراقه وكتبه ونظارته وبندقيته، والآخر مع عدسته.

فأدركت أننا هنا في حالة الثورة، حيث يصعب إيجاد البصيرة النافذة التي تعطي الحل الأمثل، أو بالأحرى الحل الصواب تماماً لما يتوجب فعله، هنا حيث تختلف الرؤى وتغدو أحياناً كل الإجابات خاطئة وأحياناً كل الإجابات

صحيحة. وتلاشى قلقي حين وقفنا نصلي جماعة، صفاً واحداً، الكتف يلاصق الكتف، همتنا واحد، قبلتنا واحدة، قد نختلف ربما، ولكننا لا نفترق.

(23)

العصفور الذي تبعثر عشّه برصاصة
أزاح الأنقاض
وصنع من بعض القشّ وفوارغ الرصاص عشاً جديداً متيناً
بنى حلمه عليه.

رامي

طلعت شمس جديدة على حمص، وحمدت الله أننا لازلنا أحياء نُرزق. ثمة عصافير تزقزق في المدينة وتزور شرفاتنا المهدمة، ولعلها ترى الجمال في سكان المكان، مهما كان البنيان من الخارج مهدماً أو قبيحاً.
تجولت وحدي في الشوارع الداخلية للمدينة القديمة، ووجدت كرة مهترئة ترتطم بقدمي، وطفل على بعد أمتار بدا لي في العاشرة من عمره ينتظر رداً مني.
ركلتها بحماس باتجاهه، وأنا سعيد برؤية طفل يلعب بالكرة ههنا، كانت فرصة ذهبية لأصادق روحاً لم تتلوث بخلافات أو تعقيدات، ولا شاخت من الظلم والقهر..
قلت له بسرعة:
أنا رامي، وأنت؟

قال:

أنا هادي رضوان عبد السلام.. أبي الشهيد رضوان..

وأشار إلى الخلف وقال:

وهناك قبره..

وقع في قلبي ذلك الاسم، لقد استشهد والده منذ شهر تقريباً وهو يقاتل ببسالة على أحد الجبهات، بدأت أحادثه وأنا أتابع اللعبة:

هل هذا منزلكم؟

أخبرني أنه قد أتى مع أمه وإخوته ليجاهدوا مع أبيه، ويساندوه ويبقوا قربه، لكنه استشهد، وتركهم وحدهم، وهو المسؤول عنهم الآن.

لم أستطع مد يدي إلى محفظتي لأعطيه نقوداً، فالنقود لا تشتري شيئاً مهماً في الحصار، لكنني قررت أن أعود إليه ببعض المواد للطبخ، فوجدته يحدثني عن حياتهم، فأمه تطهو للثوار، ويعطونها أجراً، وهو يساعدها في ذلك. وقد طلب من قائد أحد المجموعات أن يدربه على حمل السلاح فقال له بأنه يجاهد برعايته لأمه وإخوته، وبأنه حين يكبر سيكون رجلاً عظيماً، فقط عليه أن يتعلم فالسلاح دون علم مجرد آلة تسبب الأذى والدمار.

لم تكن هنالك مدارس في الحصار، وكان يوجعني رؤية الأطفال يتسكعون بلا مدارس، وحين لقيت هادي في طريقي، وجدت أخيراً مفتاحاً ما لعمل يمكن أن أسدد فيه دين أب مجاهد..

قلت له إنني بارعٌ في الرياضيات وسأجعله يتقنها، ابتسم وقال:

لكن لا أملك أن أدفع أجراً..

ضحكت وأخبرته أن أجري أن نلعب الكرة معاً في نهاية كل أسبوع إن كانت الأوضاع هادئة نسبياً، وأخبرته أين أسكن في حال احتياجه لأي مساعدة، وهكذا بدأ هادي يتردد على غرفتي حاملاً قلماً وورقة، وكنت أبذل جهدي في البحث عن دروس علمية تناسبه، وإن كان ذلك لم يرض طموحي، فقد كان هدفي مدرسة صغيرة تتسع لكل طفل حرموه حقه. غير أن تطورات الأوضاع قلبت الأمور رأساً على عقب، فجعلتنا نصل الليل بالنهار عملاً وتخطيطاً وسعياً، لعلنا نكسر طوق الحصار بأيدينا القوية المتشابكة.

(24)

مات الانسان..
فهل أحزن على ضياع العمران؟!

راسي

مع بداية هذا العام ٢٠١٣م حوصرت جوبر والسلطانية، وبات الخطر كبيراً على سكان الحيين من الإبادة، اجتمعت القيادات هنا وقرروا التخفيف عنهما بعمل يلفت نظر النظام فيجعله ينصرف عنهما.

كنت أقضي أكثر وقتي مع محمود الذي بات صديقي أنا أيضاً، وذلك في الأوقات التي أغادر فيها مناوبات الحراسة، أو تلك التي لا أجد فيها ما أفعله على الإطلاق في ظل الركود الحاصل.

محمود رغم ما بدا من كآبته، إلا أنه كان يتجول كل يوم مع آلة التصوير، فيلتقط صورة تضج بالأمل والحياة، وغالباً ما تكون ملخصة في وجه طفل رسم للحياة معنى بشجاعته وتحديه الموت بابتسامة الحياة. فيما ابتعد غياث قليلاً واختفى على عادته في الورشة يحاول أن يصنع شيئاً من لا شيء، وأن يتغلب على حالة العجز القاتلة، دون أن يخبرني ماذا يفعل، وأين يختفي.. وحذيفة غارق باجتماعاته

العسكرية التي لا تنتهي.

كنت قد صنعت مع محمود عالماً فريداً مختلفاً من الصور، وكنت أساعده في نشر الصور البديعة التي يلتقطها على كثير من المواقع الإلكترونية المهمة. وهو وجد من يفهم لغته، ويحاوره بما يُحب، عن الإنسان والجمال والفَن، عن تاريخ المدينة وآثارها المنسية التي غُيّبت وتم تجاهلها من النظام، وقبول الناس وتعايش كثيرين مع فكرة النسيان، إذ أنه لم يوجد مَن يربطهم بتاريخهم كما يجب، أو بالأحرى لم يوجد من يعرفهم بقيمة ما يملكون، وكنا نجلس جلسات مطولة في بيت العم أبو صفوان، يسرد علينا مغامراته وتاريخ حياته، وقصص الشهداء الذين يتوافدون من الجبهات، ونسرد عليه مغامراتنا بفخر، وكم كان موقفنا سيبدو سيئاً إن لم تكن هنالك ثورة تحفزنا لأن نغدو رجالاً بحق.

كنا نتسلل أحياناً إلى حدائق البيوت المهجورة، ولا ندخلها احتراماً لحرمتها، بل نلتقط لها صورة من بعيد، صورة تجسّد تاريخاً ساحراً نسيناه. وأحياناً كان العم أبو صفوان دليلاً رائعاً يخبرنا عن أماكن متميزة في مدينة محاصرة منسية. صحن البيت، نافورة المياه، أشجار الليمون والبرتقال واليوسفي والكباد، الياسمينة المتدلية، ودالية العنب، الأرجوحة التي صدئت تنتظر رفاق درب اضطروا لهجرها دون وداع، فهم يفتقدونها ويتألمون شوقاً لأوقات معها كانت هي الحياة، وهي تئن لفراقهم كلما هبّت نسمة هواء فتحركها، وتحدث صريراً يشي بالألم الكامن في أعماقها.

قال لي محمود يوماً أنه لم أكن بدري أن حمص بهذا الجمال!

كان حقاً جمالاً منسياً مغيباً، لا أحد يعرف قيمته، جمال عريق، وفي عمقه جمالٌ

آخر أكثر غياباً عن التفكير، جمال وجودنا تحت سماء من الحرية مهما كان صغيرة، فهي تضعنا في مواجهة مع حقيقتنا أفراداً وجماعات، وتكشف حقيقة أو زيف ما نرفعه من شعارات، وما نجاهر به من مُثل وأخلاق، وما نتشدق به من نظريات. فنطغى أو نرفق، نبطش أو نعدل، نتراخى أو نعمل، تلك المساحة الصغيرة كفيلة بأن تستخرج أقبح أو أجمل ما في نفس كل واحد منا.

كان محمود مشغولاً آسفاً على دمار المدينة، وكنت خائفاً من دمار الإنسان، وقلت له حينها إن دمار الإنسان أخطر من دمار العمران.

أشرت إلى برج الغاردينيا الذي ظل مهدداً لأرواح كثيرين، وقلت له، بوسعك المقارنة بين هذا وبين بيت العم أبي صفوان، في أهداف البناء، وأبعادها المخطط لها في المدينة، وانعكاسها في طريقة التفكير الجماعية، وحتى في استعمالها الحالي. بوسعك أن تتساءل من غربنا عن حمص حتى بتنا نتعرف عليها كسائحين يتجولان في أرضها لأول مرّة.

مَن دمّر الإنسان الذي لم يستطع التعامل مع كلمة حرّيّة، فدمر العمران وقتل الإنسان في آنٍ معاً؟!

وافقني حينها وبدا لي أقل هجوماً منه في حواراته مع حذيفة، وأخبرني بأنه متوتر من الأوضاع العامة هنا، ومن عدم إمكانية حدوث معركة حاسمة، وبقلقه من كل شيء، أو من اللاشيء، من إمكانية استمرار الحصار وأبعاد ذلك على الحاضر والمستقبل، فالناس تموت ونحن محاصرون، لا نقدر على القيام بمعركة حاسمة، لا نستطيع التقدم شبراً واحداً خارج العدية، كما لا يمكننا إيقاف هذا الحصار والقصف المجنون. ووجدت نفسي أجيبه:

لكننا مع ذلك كله لم نسمح لهم إلى حدّ الآن أن يدخلوا ولو مسافة شبر واحد أيضاً، ونحن المطوقون المحاصرون الذين لا نملك شيئاً يوازي سلاحهم وجندهم وعتادهم.

كنت أحدثه وأنا أفكر بما في وسعنا فعله لجوبر والسلطانية المجاورتان لحي بابا عمرو، وقد حاصرهما النظام وبدا الوضع حرجاً للجميع، النظام يحاول السيطرة في كل اتجاه ليكسر شوكتنا، وكم أخشى أن ضلعاً آخر في العديّة قد يُكسر.

(25)

وكلما نظرت في عيونهم الطفولية البريئة..
أوجعني الوطن!

مؤمنة

اكتشفت أنني بلا أحلام لا يمكنني مواصلة العيش على هذا الكوكب، وأحلامي باتت مختلفة اليوم، متجددة، أكثر فاعلية وحياة حتى منها عندما كنت في حمص القديمة قرب زوجي عبد الرحمن.

باتت لي خطط جديدة مختلفة، أستيقظ من الصباح الباكر لأقابل هدى، ونذهب إلى أحد المراكز التي ينتظرنا فيها الأطفال ويترقبون قدومنا من الباب، حين أدخل يصافحونني كالكبار، يتشبثون بثوبي وينادونني بالآنسة مؤمنة، يتحلقون حولي كالزهرات وعيونهم معلقة على حقيبتي، تغيب هدى في إحدى الغرف لتجتمع مع الفتيات الأكبر، ليقمن معاً ببعض النشاطات، أو يقرأن كتاباً، أو يناقشن فكرة.

تظل العيون الصغيرة ذات البريق الأخاذ ترقبني، أفتح حقيبتي ببطء، أضع يدي داخلها، وأرتدي الدمية التي قضيت الليلة وأنا أصنعها بثيابها الجميلة،

وشعرها الصوفي المرتب، وملامحها السعيدة. أظهرها فجأة لترحب بهم، تتسع بسماتهم ويبدؤون بالتصفيق والهتاف للدمية، وهنا تبدأ الحكاية، حكاية كل طفل منهم ترك بيته وقاده القدر إلى هنا، يُنصتون باهتمام لحديثها، يناقشونها، يسردون قصصهم أيضاً، بعضهم يبكي وقد تذكر مأساته، أحاول جاهدة أن أنصت لكل ما يقوله، لا ترحل الدمية حتى ننهي حديثنا بضحكة، ونمرح، ربما نقفز معاً وفي النهاية يحصل الجميع على السكاكر والبالونات. مهمة شاقة لكنها تمتعني، وتمدني بوقود أكمل عبره يوماً مليئاً بالمشاق.

نستنفر حين يُفتح بيننا وبين حمص القديمة طريق البساتين، نتحول إلى خلية نحل، فريق يحاول جمع المال لتأمين شيء من الذخيرة، وفريق يحاول إرسال بعض الثياب، وفريق آخر يجهز أطعمة مفقودة هناك، فهم يستهلكون طوال هذه المدة من المخازن الموجودة في تلك الأحياء، غير أن الوضع ينذر بالخطر إن هو استمر على هذه الحال، فقد تنفذ المخازن، ويُستهلك كل شيء، وماذا بعد؟!

كانت تسألني هدى بتخوّف فأتهرب من الإجابة، وأقول لها بأنني لا أريد أن أفكر في هذا الأمر، أريد أن أفعل ما عليّ وحسب.

تسألني مجدداً عن أحوالهم، وتبوح لي بشعور أنهم قد يقدمون على معركة، فهم يكثفون جهدهم للحصول على أكبر كمية ممكنة من الذخيرة والسلاح، وأخبرها بأن عبد الرحمن لا يقول شيئاً سوى أن يطمئنني عن أحوالهم، وبأنه كتوم جداً وهذا يريحني، فلا أكثر من انتشار الشائعات في هذه المدينة، ولا مجال للخيبة إن لم يتحقق ما يشاع.

أعود إلى ورشة الخياطة، حيث أحاول مساعدة بعض السيدات بخياطة

الجعب التي يرتديها الثوار، نحرص أن تكون متقنة وقوية، وجميلة أيضاً كي يرتدوها متفائلين.

كنا نتمنى لو أننا نرسل باسم جميع النساء والأطفال هنا رسائل داعمة، نخبرهم بأننا نترقب أخبارهم واثقين أن الله تعالى سينصرهم، وبأننا ندعو لهم بالحماية وأن يرد كيد عدوهم عنهم، كنا نريد أن نقول لهم بأننا سننتظر تحرير حمص العدية كاملة على أيديهم، فقط عليهم أن يصبروا ليتجاوزوا هذه الأزمة فهو امتحان، وسيكتب الله النصر للصابرين.

كانت مآذن الحي عندنا ترف أخبار الشهداء عندهم، لنقوم بجولة على أمهاتهم الثكالى، نقدم لهن التهاني، ونحاول أن نقدم بعض المواساة، شيء قليل لا نملك سواه، يشعرنا بأننا إخوة، لنا قضية واحدة، وجرح واحد، وحلم واحد أيضاً.

ذاك المساء كانت والدة أحد الشهداء تنتظرني لأسرد عليها قصتي، لعلها تنسيها الوجع، لم أكن أدري أن أوجاعنا يمكن أن نستخدمها كحبة مسكن لأوجاع الآخرين.

غير أن الألم يعود إلينا جميعاً بعد مدّة، فنتحاشى أن نتقابل، فالتألم منفردين أفضل، وفي زوايانا الخاصة التي لا يرانا فيها أحد، يمكننا أن ننفجر بكاء، ونبوح بكل ألم تحاملنا على أنفسنا كي نخفيه. هناك حيث لا يسمع ما نقوله إلا من امتحننا، ندعوه ليعيننا على النجاح بأفضل نتيجة ممكنة.

(26)

نُحاصر ربما
غير أن إرادتنا لا تحاصَر
بل تَقود المعركة
وتنتصر...

رامي

أتى محمود منذ الصباح الباكر متجهماً وقد سمع أخبار تطويق جوبر والسلطانية المنطقتان الملاصقتان لحي بابا عمرو، صرخ بنا وقال:
-ستحدث مجزرة ونحن هنا نتابع ونتفرج وكأن المنطقة لا تبعد عنا سوى ثلاثة كيلو مترات!
نعم هكذا، سيأخذ النظام قطعة تلو أخرى من حمص، ونحن نتشدق بشعارات الجهاد، ونرفع رايات التوحيد، ولما يغادر ذلك حناجرنا.
وقفتُ أفكر بطريقة أهتدي عبرها إلى جواب يقنع شخصاً يتماوج عقله بين عاطفة تتدفق، ورغبة بسماع حلول منطقية، وفي الحقيقة لم يكن وحده غاضباً، فقد كان القلق على مصير الناس هناك كبيراً، فالنظام شرس لم يتوقف عن

ارتكاب المجازر ليوقف الثورة في عاصمتها، وما مجزرتي الحصوية والخالدية والحولة عنا ببعيد، ولكن أنى له أن يفعل طالما في قلوبنا تنبض الحياة.

أخبرته أن القادة يجتمعون الآن، ومن يدري عن أي شيء قد تسفر هذه الاجتماعات.

لم يقنعه كلامي، بل وسخر منه وسألني كيف لي أن أسمي هؤلاء الأشخاص قادة، وأن أسلم إليهم روحي ولا خبرة عسكرية لديهم، إنما هذا محض جنون وإلقاء بالنفس إلى التهلكة.

التزمت الصمت باسماً، فما كان لي أن أكشف أسرار ما كان يدور، لكنني كنت أشعر بالقوة تسري في روحي، فأخيراً سنتحرك، وسنلقن النظام درساً لن ينساه.

حاول استفزازي أكثر فقد أغاظه صمتي، وسأل عن غياث الذي يصل الليل بالنهار يعمل بسرية تامة، ولا ينام إلا قرابة أربع ساعات، فلم أجبه أيضاً، وفتح عينيه بذكاء وسأل عن سبب اختفاء حذيفة، وبحاسته السادسة التي أدرك أن هناك خطب ما. وهنا تلاشى غضبه واستحلفني بالله أن أدعه يشارك في أي شيء.

ولم تكن الأمور بهذه السهولة، فقد اختير ثمانين شاباً من أفضل الشباب للقيام بالعملية وانتهى الأمر. ذهبت للقادة واستشرتهم بشأن محمود فأشاروا بحاجتهم لمن يعمل على تثبيت كاميرات في الشوارع المفصلية لمراقبة ورصد تحركات جنود النظام، وربطها بشاشات مراقبة ضمن غرفة خصصت لمتابعة سير العمل بدقة وإتقان.

كانت الخطة تقتضي استخدام نفق خاص يوصل إلى مدرسة في حي القرابيص، يستقر فيها الشباب الثمانين كخطوة أولية للهجوم، ثم تصل إليهم مجموعة أخرى،

ويتم الهجوم على الحواجز من عدة محاور ضمن تخطيط وحسابات دقيقة.

قمنا بالتجهيز لكل شيء، من أسلحة وذخيرة ورايات وطعام وألغام، وفي ساعة الصفر انطلق الشباب لينفذوا الجزء الأول من الخطة، وقد قاموا بالتنفيذ بسلاسة، واستقروا في المدرسة الفارغة، ورفعوا الراية على سطحها، كل ذلك قد حصل دون أن يشعر بهم جنود النظام الذين كانوا على مسافة قريبة جداً منهم، ومكثوا ينتظرون وصول المؤازرة كما هو مخطط، لكن الوقت طال ولم يصل أحد!

كانت الساعة تلو الساعة تمر، تزيد من توترهم، وشعورهم بأن أمرهم قد يكشف في أية لحظة كان يجعلهم متأهبين. مرّت أربع وعشرون ساعة ولم يصل أحد، وقبل أن يقرروا العودة وصل بعض الشباب ليطلقوا النار باتجاه الشباب المنسحبين ظناً منهم أنهم من طرف النظام، وإلى حين اكتشافهم أنها نيران صديقة كان التوتر قد بلغ أشدّه، فنجوا بأعجوبة من هجمات النظام، وعادوا إلى حمص القديمة غاضبين خائبين، وقد فشلت العملية بسبب تخطيط سيء، وأخذوا يبحثون عن القادة ليوصلوا احتجاجهم فوجدوهم منهكين من العمل المتواصل، ملتزمين بالصمت ومحاولة الاحتواء والتهدئة.

جن جنون محمود، وأخذ يكيل الشتائم لكل أحد، ولكل شيء، لكن الأوامر أتت بلزوم الجميع أماكنهم، فالعملية لم تبدأ بعد، وعندما مد الليل ستاره على المدينة استكملت العملية ولكن ضمن تنسيق عال وخطة محكمة، فقد تسلل الشباب بهدوء وتنظيم عبر الأنفاق إلى القرابيص، وخرجوا بغتة من نقاط لم يتوقعها جنود النظام، ولم يخيل إليهم ولو لحظة أنهم سيجدون الثوار أمامهم، فدب الذعر في نفوس العساكر، وبدأ طلب النجدة عبر اللاسلكي، وبدأ تحرير

الكتل السكنية بنجاح ساحق، واستمرت العملية يومان، تم فيهما تحرير جزء من القرابيص، وقتل عدد كبير من جنود النظام وأسر خمسة وعشرين، ومنهم من كانوا يحملون هويات إيرانية، ومنهم من كانوا سوريين لكنهم من الشيعة الذين قدموا مجندين للقضاء على السنة كما أوهمهم قاداتهم. وكانت العملية نصراً مؤزراً لنا، فلم نخسر ثائراً واحداً من بيننا، فيما كانت خسائرهم فادحة، كان محمود يتابع المطاردة للجنود عبر شاشات المراقبة، ابتسامته تكاد تطال أذنيه، وفي الحقيقة كنا جميعاً سعداء بعملنا المنظم معاً ككتائب مقاتلة، وبروح التعاون والمشاركة، وتلافي الأخطاء الفادحة التي حصلت والتعلم منها لتنسيق هجوم متقن.

قابلت حذيفة وغياث بعد أن استيقظا من نوم عميق، كنا نتبادل التهاني وشعورنا بحلاوة طعم النصر لا يضاهيه شعور، كانت صفعة ورسالة للنظام أن بإمكاننا أن نتفوق عليه حتى وإن كنا أقل عدداً وعدّة.

حققت عملية تحرير القرابيص الأولى هدفها في تشتيت النظام عن جوبر والسلطانية، فيما توجه إلينا ليكيل إلينا الضربات والطعنات.

(27)

لم أرهم أبطالاً يوماً..
لكنني أشهد ولادة بطولاتهم بأمّ عيني..
أرى بوضوح كيف تصقلهم المحنة
فتحولهم إلى عمالقة.

غياث

تدرب رامي على القنص جعله من أبرع القناصين في الحصار، ولم يخب ظني فيه يوماً، لكنه فاجأني بجرأته الزائدة، وما كان يخفيه عني وعن حذيفة من أسرار.

كان أيضاً يحمل عن حذيفة عبء كبير بتدريب الشباب الأصغر سناً، فأسلوبه المحبب، وقربه من مشكلاتهم وهمومهم، وطرافة حديثه جعلتهم يتحلقون حوله، ويتأثرون بما يقول ويفعل، ورغم انشغاله المستمر كانت هناك مغامرات لم أكتشفها إلا عندما اعترف بها بنفسه.

رأيت النتائج بعيني ذات يوم حين رافقته إلى حيث يرابط على أحد الجبهات، لفتني جدا قدرته على التصرف بسرعة ونباهة في اللحظة الحاسمة، كدت أوقن أنه تدرب في معسكر خاص خارج البلاد ولم يصرح بذلك، لكنه نفى ذلك

وأكد إن تدريبه ذاتي، وبأنه عمل على نفسه كثيراً حتى اكتسب هذه الخبرة.
عجبت من هذه النقلة النوعية، لقد كنا قبل الثورة لا نعرف السلاح، ولا كيف نستخدمه، وكنا نصف من يحمله بالأزعر، حتى ارتكبوا فينا المجازر، وبات السلاح أداتنا لندافع عن أنفسنا، وبات معيباً - في غضون شهور- أن يكون بيننا شاب لا يتقن حمل السلاح واستخدامه.
كان رامي يشير إلى الكتل التي يتمركز فيها جنود النظام فيأتي بمعلومات تفصيلية رهيبة، وقد سألته من أين له كل هذه التفاصيل التي لا تتضح عادة عبر كاميرات الرصد، فزل لسانه وقال بأنه يعرف أيضاً في أي غرفة يبيتون وماذا يأكلون ويتحدثون.
فهمت أن في الأمر سر خارج عن مراقبات اللاسلكي، وبعد معاناة وأخذ ورد، أخبرني أنه كان يقوم بأمر ما فيه مخاطرة، استحلفته بالله أن يتكلم، فأخبرني بأنه يتسلل أحياناً بعد منتصف الليل إلى كتل العدو، ويبيت هناك إلى ما قبل الفجر، ثم يعود وقد تزود بالمعلومات والتفاصيل اللازمة، دون أن يكتشفوا أمره.
جن جنوني من تهوره، وصرخت به غاضباً، قلت له بأن الأمر ليس لعبة إلكترونية!!
لكنه أجاب بهدوء:
أحياناً قد يشبه الأمر اللعبة الإلكترونية، لكن علينا أن نلعبها بذكاء وحذق، ليسوا أكثر ذكاء أو إيماناً بما يقومون به منا، وليست المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، لن نتقدم عليهم يا غياث ما لم نسبقهم بالتفكير، وندرس تحركاتهم، فلا نسمح لهم أن يدوسوا شبراً من العديّة.

قال ذلك ثم عاد إلى موقعه، محتضناً قناصته، منتظراً أن ينتهي وقت مناوبته كي يستريح قليلاً. ورغم أن التعب كان بادياً عليه إلا أن عينيه كانتا تبرقان بحماس مختلف. وكنت أحدق في وجهه ذاهلاً وكأنني أراه للمرة الأولى..
وفي تلك الأثناء بدأ العمل على معركة القرابيص الثانية بتاريخ ٢٠١٣/٤/٨م، والتي تحررت أبراج القرابيص كاملة وبعض الكتل من حي القصور، وحتى هذه العملية على نجاحها الساحق، وما تركته من أثر معنوي كبير، دفعت بعض المشككين بالحصار لبث بعض التساؤلات لتخوين بعض القادة، والسؤال عن أسباب عدم إكمالهم العمليات إلى المصابغ وسوق الهال، مدّعين أنهم هم من يريدون إطالة الحصار وإزهاق روح الشباب المقاتل، مع أنهم يعيشون بينهم، ويعانون مثلهم.
ومما زاد التوتر في الأجواء أننا كنا ننتظر مدداً من الريف أو من حي الوعر، أو من خارج حمص، لكن آمالنا ذهبت هباء، وجعلت شعورنا بالخذلان مضاعفاً مما جعل بوادر أزمة كبيرة تطفو على السطح.

(28)

أتقصى أخباركم كلّ ليلة
لأتفقد الصندوق المغلق الذي يسجنكم،
وهو يطفو على يمّ من جحيم
أتراه يصل الى الشاطئ يوما؟!!
أتراكم تصلون بأيمانكم، بنقاء فطرتكم،
بخير أتى بكم للصندوق ليرحل بكم
الى مشروع نجاة للبشريّة،
فتكونوا لفرعوننا عدوّاً وحزناً؟!

مؤمنة

أحد عشر شهراً تقريباً قد مضى على الحصار. شوقي إلى عبد الرحمن لم يهدأ لحظة، وأملي بلقاء قريب به لم يخفت، ويقيني أن نهاية هذه الرحلة إلى خير يزداد. قرابة عام على حصارهم، والضغوط علينا تزداد من كل ناحية.

أقاربي يناشدونني بالله أن أضغط عليه كي يخرج بأية طريقة، يقولون لي إنه طريق عبثي، مآله إلى هلاك، ومنهم من يتهمه بالتهور، والتسبب في دمار المدينة.

كلما قالوا ذلك لا أتمالك نفسي، فأجدني أنفجر في وجوههم غاضبة كقنبلة موقوتة.

سألتهم كيف كنتم ترون العيش في مذلة؟ ألم يكن يستهلكنا بلا طائل؟ أما كنا لا نختلف عن الأموات سوى بكوننا نتنفس؟ أولم يقتل فينا كل شيء؟ ويحاربنا لديننا، ويحرمنا من التفكير خارج سقف بقية الكائنات؟ أولم تصفعنا الثورة بقوة لتعيدنا لصوابنا حتى بات لشبابنا هدف غير التسكع في المقاهي، ولبناتنا حلم بأن يتزوجن رجالاً يقاتلون لرفع الظلم بكل وسيلة، لينجبن منهم أبطالاً بعد عقود من الذل؟ أوليس في بطولاتهم ما يستحق أن نتغنى به ونحكيه لأبنائنا لمئة عام قادمة؟ تمنيت لو خرجوا ليلمسوا حجم الأسى والظلم، ومدى الحاجة لاقتلاعه من جذوره، وتمنيت لو أنهم ذهبوا معي في جولاتي الصباحية..

كنت اليوم في مدرسة مع هدى، جمعنا الصغار حولنا، طلبوا منا أن نحكي لهم قصّة، أخذت هدى تحكي لهم قصّة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، دمعت عيناها للحظة، ثم حدثتهم عن طفل بأعمارهم كان سيداً بشجاعته وإيمانه، اسمه حمزة الخطيب، قتلوه وعذبوه لأنه كان يوصل غذاء لدرعا المحاصرة، طلبوا منها أن تحكي المزيد، فحدثتهم عن هاجر ورفاقها ممن باتوا في حواصل خضر في الجنة.

سألها أحد الأطفال:

-ولماذا لم يدافع عنهم أحد؟ لماذا لم ينقذهم أحد؟

حدثتهم هدى عن أبطال هبّوا من كل مدينة وقرية ليدافعوا عنهم وعن كل المستضعفين، شباب حملوا السلاح، وشباب كانت العدسات سلاحهم، وآخرون

اهتموا بإسعاف الجرحى مخاطرين بأرواحهم، وغيرهم اهتموا بأسر الشهداء وبالأيتام.

قالت لهم بأن لكل شخص منا دور، ويجب أن يقوم به ليرضي ربه، تتابعت أسئلتهم بشغف..

ماذا نعمل؟ كيف بوسعنا رفع الظلم؟

حدثتهم عن شباب حملوا السلاح كي يحموا حمص وأهلها، ثم حوصروا في حمص القديمة، وكل يوم تدور معارك شرسة، وهم يقاتلون ويستشهد ويجرح منهم كثير، كل ذلك لأجل أن يكون لكل طفل على هذه الأرض حياة أفضل، لا ظلم فيها ولا فساد.

قالوا بسرعة:

-دعينا نرسل لهم رسالة نخبرهم فيها كم نحبهم، وندعو الله لهم بالنجاة من المجرمين.

بدأنا بالتصوير، كل طفل يعبر في دقيقة عن مشاعره. كان بينهم أطفال ينتظرون آباءهم المحاصرين، وأبناء شهداء ومعتقلين، وكانت أكثر الدقائق صدقاً ونقاء التي عشتها في حياتي.

(29)

أتينا إلى هنا لنرفع رأس هذه الثورة بما نحمله من مبادئ وقيم..
أنى لنا أن نرتضي الركوع لمن ظلمنا،
أو نسلّم له أرضنا،
وقد مضت شهور ونحن ثابتون على جبهات القتال،
قد تَعب من حصارنا وما تعبنا..
وما استطاَع دخول شبر من هذه الأرض.

غياث

الخوف من الموت إبادة ضمن حدود مدينة قديمة من كل الأطراف أخذ يعصف بفئة من الناس، المشكلات تفاقمت، وباتت السيطرة عليها أمراً صعباً.
كنت أرى رفاق الدرب وقد انقسموا واختلفت آراؤهم. بداية عذرتهم لتأزم الوضع، وللتهديد النفسي الرهيب بإمكانية الموت جوعاً أو إبادة.
كان محمود مع الفئة التي رأت الخروج من الحصار بأية طريقة، كونهم يئسوا من إمكانية وصول من يفك حصارهم، أو ينوب عنهم في مواجهاتهم التي أرهقتهم، أو حتى يوصل لهم بعض الطعام، في تلك الأيام أصبح الطعام شحيحاً جداً، وبات الهم في كيفية تقسيمه وتوزيعه واستهلاكه أيضاً، ليصمد الناس والجرحى

والضعفاء، ونصمد نحن أيضاً، لنستطيع البقاء على قيد الحياة أطول فترة ممكنة.

وكان رامي مع الفئة الثانية، تلك التي لم ترَ بداً من الصمود، فالتنازل بعد كل هذا العدد من الشهداء وبعد هذا الظلم عار. وترك المدينة تواجه مصيرها وحدها أيضاً برأيهم كان من العار. رامي وفريقه وضعوا أمام أعينهم طريقين لا ثالث لهما، نصر أو شهادة، فقد خرجوا ليدافعوا عن هذه الأرض، ويطردوا الأوغاد منها، فكيف هكذا يتركونها ويرحلون، ولمن تُترك؟ للباغي كي يتجبر أكثر، ويحارب ويظلم ويقهر؟!

تلك الفئتان بات التنازع بينهما في أوجه، وكان أن أصدرت الفئة الأولى التي قررت الضغط بهدف الخروج، أصدرت بياناً نشرته على صفحات الإنترنت، أعطت فيه الفئة الثانية مهلة أسبوع للحسم، البيان تم بعد اجتماع أصحاب القرار، ظهر باسم المجلس الشرعي. فاتهم الفئة الثانية بالظلم والجور والفجور واحتقار الناس وإرغامهم على البقاء ضمن الحصار، وقد شملوا في بيانهم اتهام الداخل والخارج في المماطلة على حد زعمهم في زيادة الحصار، وطول أمده، مركزين على سوء الوضع الطبي، وحالات ضعف الأطفال بسبب نقص الغذاء، وتردي الحالة النفسية للمقاتلين، متهمين بعض القادة بالطغيان والبغي، ومشبهين إياهم بفرعون الذي قال ما أريكم إلا ما أرى. وأمهلوهم في حال لم يفك الحصار خلال أسبوع فسيتخذون الإجراءات اللازمة في إجلاء المدنيين، وإخراج الصادقين - كما قالوا- من المقاتلين ليخلصوهم من المشاريع والانتماءات السياسية والأجندات الخارجية على حد قولهم، وتم التوقيع باسم امانة المجلس الشرعي في حمص المحاصرة. بتاريخ الاثنين ١١-٦-١٤٣٤هـ الموافق ٢١ -٤-٢٠١٣

هذا التاريخ كان علامة فارقة في تاريخ الحصار.

صرخ رامي وهو يقرأ البيان:

عن من يتحدثون يا غياث؟ أخبرني بالله عليك!

مشاريع وانتماءات سياسية؟ منذ متى نتحدث عن بعضنا بهذه الطريقة؟ وما دخل الأجندات الخارجية؟ وفرعون؟ أليس بوسعهم أن يطالبوا بالخروج دون أن يشككوا في نزاهة إخوة لنا نعرفهم ونحترمهم ونحبهم؟!!

حاولت تهدئته، وأخبرته برأيي، فلم أظنهم إلا تعجلوا وأخذتهم العاطفة عن التفكير في مآلات ما كتبوه واجتمعوا لأجله. وقد سمعت أن بعض من كتبوا البيان تراجعوا وأرادوا الاعتذار، لكن البقية خافوا الحرج أمام الناس إن هم تراجعوا، فالاتهام الذي ذكروه لبعض القادة بسرقة الأموال اتضح أنه اتهام خاطئ، وأثبت من استلم الأموال بالحجة والدليل أنه وزعها على الجميع بالتساوي، وقد اعتذروا له بينهم وبينه.. ثم جلسوا مع بعض القادة الذين اتهموهم بالفجور والظلم، فأجابوهم على كل مسألة بالحجة، ولم يستطيعوا أن يردّوا بأي دليل يدعم حجتهم ويدحضوا تلك الحجة.

ويأتي حذيفة كئيباً، الذي بدا وكأنه سمع حوارنا كله، بدا يائساً من تدهور الأمور، وأخبرنا بأنه لا يقرأ في المستقبل إلا خروجاً آسفاً حزيناً، فقد فات الأوان.

جلس على طرف الأريكة واجماً، وقرأ البيان مجدداً، متمعناً، متأملاً، وقال بنبرة حزينة:

لقد أعطى هذا البيان الحجة الشرعية لمن يريد الخروج، وأنهى الطرف الذي لا

يزال يفكر بالبقاء والصمود مهما تعب، لأنه إن لم يستجب للبيان، وهو شرعي، فسيحسب على فئة الحشاشين أو الزعران.

في تلك الفترة كان العمل يجد على حفر خنادق في البساتين، وخندقاً آخر تحت شارع نزار قباني الذي يجمع حي الغوطة والقرابيص ببساتين حمص، ولم تكن الخنادق بعد قد انتهى العمل فيها، وكان الهدف منها إدخال الذخيرة والمساعدات، وأن يستطيع الشباب أن يروا أهلهم عبر التسلل منها إلى حي الغوطة الملاصق للقرابيص.

وبسبب ظهور البيان كان التأثير سلبياً على الشباب، إذ جعل بعض القادة ينحاز لقرار المجلس الشرعي، وبعضهم يعارض القرار، ما جعل الخلافات تطفو على السطح، ليراها الشباب الذي دخل الحصار مقدماً روحه وما يملك ليس ليرى من يحب من القادة الذين هم له القدوة يتشاجرون أمام أعينهم.

كان رامي حانقاً، وشعور بالصدمة يتملكه، لم يكن ليحتمل رؤيتهم يختلفون أمام عينيه ويكتفي بالصمت، لكنه نهض فجأة، وقرر أن يفعل شيئاً. فأرسل إلى ستين من الشباب وحدثهم قليلاً، ثم ذهبوا إلى المتخاصمين من القادة، وأخبرهم أنهم إذا أرادوا أن ينفصلوا عن بعضهم ويعلنوا القطيعة فسيترك الثورة، سيعتزلها ويعود إلى أمه، وختم كلامه قائلاً بألم:

ماذا تبقى لنا نحن الصغار من معاني الثورة إذا اختلف الكبار؟!!

عندها أدركوا أن الأمر جد، وبأن أبعاد الخلافات وخيمة، فقرروا تأجيل الانفصال إلى أجل غير مسمى.

(30)

لن أعط أحداً منهم فرصة للشماتة
أموتُ ولا أعلن بأنّي قد تعبت
لقد تعبت هذه الأرض أكثر
تعب أصحاب المظالم ينتظرون أن تردّ مظالمهم
فليلقوا بأعباء الشكوى على من يجيدون الكلام،
فإننا ههنا أهل عمل.

رامي

كان أملي معقوداً على طريق البساتين، فقد وعدنا إخوة لنا خارج الحصار أن يتم التبديل بين المقاتلين، فتخرج الفئة التي أنهكها الحصار والقتال قرابة عام، وتدخل فئة جديدة بهمة وحماس ودم جديد يضخ في شرايين حمص القديمة.

لكن قتل الأمل في داخلي إغلاق هذا الطريق علينا، ونحن الذين كنا معه نعاني من تحكم تجار السلاح، وبمعاناة إدخال بعض الطعام، ورغم ذلك كان القليل أفضل من لا شيء بالمطلق.

خطتنا في أن تدخل الذخيرة أولاً، وثانياً أن يُجلى الجرحى لإسعافهم فوراً، وثالثاً أن يُدخل الطعام، ورابعاً أن تُجلى العائلات المحاصرة، وخامساً أن يتم التبديل

بين المقاتلين، يخرج بعضنا في إجازة، وينوب عنا آخرون في غيابنا حتى نعود. وكانت المشكلة في منع القادة أن يخرج أحد من المقاتلين حتى يدخل سواهم ليسدوا مكانهم، لكن الفجيعة في أن أحداً من الخارج لم يرغب بالدخول إلا أعداداً قليلة جداً أتوا من الريف إلى الوعر، ودخلوا الحصار مع بعض شباب حي الوعر، الأمر الذي سبب أزمة لدى القادة الذين وعدوا فلم يتمكنوا من التنفيذ، ولم يستطيعوا إيجاد حل للشباب المنهكين، مما أدى لتمرد فئة من الشباب وخروجهم رغماً عن الجميع وفي ظروف غامضة، الأمر الذي جعل الناس يشككون بهم، ويظنون بأنهم يُخرجون مقاتليهم من الحصار دون أن يبالوا بغيرهم من الجرحى والعائلات، مما أدى إلى تفاقم المشكلات والنزاعات في الداخل، إضافة لإشاعات كثيرة جعلت الناس تشكك في نزاهة بعضها، أن فلاناً لديه طعام، وفلاناً وجدنا لديه خضاراً، الجوع والحاجة والقهر غيبت العقل، ولم تعد علبة اللحم المعلّب التي كانت تكفي لإطعام ثلاثين مقاتلاً قادرة أن تجمعهم من جديد، ليكون ألماً نفسياً كبيراً، ألم الشقاق والنزاع بين الإخوة فوق ألم الجوع وقلق الحصار.

كنا نرى مظاهرات صغيرة تطالب بالخروج، نسمع صيحاتهم ومطالبهم وشتائمهم، كانوا شباباً قد تجمعوا من فئات مختلفة، يحاولون الضغط أكثر على القادة ليحسموا أمرهم في ذلك، وكان معهم بكل كيانه محمود الذي أخذ موقفاً سلبياً مني، وما عاد يلقي التحية أو يردها، وبات يتجهم في وجهي كلما رآني، وكأنني أنا الذي قيدته ضمن الحصار، ومنعته من الخروج. وكم حاولت التحدث معه لإقناعه أن ما يفعله سيزيد الأمر تأزماً، لكنه اتهمني أنني أريد الهلاك للجميع،

وبأن في ذمتي كل المستضعفين من النساء والأطفال.

كنت أسمع هجومه فأشعر بقلبي يتمزق، لم بأسنا بيننا بات شديداً وقد كانت الرحمة لنا عنواناً منذ أن أعلناها ثورة؟!

هذه الثورة التي قربتنا وجعلتنا إخوة قضية واحدة وهدف أسمى، فما بالنا اليوم نفترق، ونتقابل كالأعداء بينما عدونا متربص بنا لننهك فيحكم قبضته ليهلكنا في ضربة واحدة.

كان الشباب يتراشقون الاتهامات أمام عيني، هناك من يتهم إخوته بالجبن والتخاذل، وهناك من يتهم بالتهور والاندفاع والجنون، وبأننا نحاصر أنفسنا.

كدت أسمع أنين هذه الأرض التي تفاءلت بنا، وشهدت أروع بطولات سطرناها هنا، شهدت على شجاعة ثوارها، منذ أول لحظة مزقت فيها صورة الطاغية بقدم ثائر حر، إلى أول مظاهرة طالبت بإزاحة المحافظ، حتى أول شهيد رحل باسماً عن هذه الدنيا، انتهاء بقوافل من الشهداء لم يخل يوم من الأيام من أن تختضنهم في جوفها.

أنا أيضاً مشتاق إلى أمي، وحنيني يقتلني إلى إخوتي وأبي، إلى وسادتي وكتبي، إلى ذكرياتي، وإليها هي.. من تعرف نفسها جيداً.. غير أنني يستحيل أن أنهي الحكاية بأن أنهزم، وأسلم نفسي ورفاقي للأسر، لنظام مجرم لا يرحم، يستحيل وإن قلّ الطعام أن أنحني أو أذل، يستحيل أن أرفع يدي مستسلماً، وقد تعلق قلبي برفع سبابتي شاهداً شهادة التوحيد في قلبي قبل أن ينطقها فمي، لأحياها في كل خطوة هنا.

أنا الذي أعيش ما بين كدح وتعب وعناء، قد تعلق قلبي بهذا التعب، وباتت

حياتي الحقة آيات أرتلها على الجبهة، فيعيها قلبي وأحياها، وتفعل بي تغييراً كما لم يكن كذلك أبداً من قبل.

كان عليّ أن أحاول التهدئة، وإن ساندتُ برأيي فئة، فالفئة الأخرى أيضاً هم إخوتي، نتنازع، لكن عندما يستلزم الأمر بروحي أفديهم، لا أعاديهم وأشمت بنا عدونا مهما كان السبب.

(31)

أيها الجوع الذي يصوب سلاحه الخفي تجاهنا
كن على يقين أننا نؤثر الموت على أن نركع!

غياث

في حمص القديمة كانت حكايتنا مع الجوع فريدة، كنت أرى الوجوه يفضحها ذلك الألم، ومع ذلك تتظاهر بالكفاية، وكيف لنا أن نعلن بأننا جياع مقهورون، ونحن الذين كنا نُضيف القريب والغريب، ونكرم الجار وعابر السبيل، وبيوتنا التي كانت دائماً مفتوحة، وموائدنا التي طالما عمرت بما لذ وطاب، نضيّق على أنفسنا لنكرم الضيف، ونتفنن بصناعة سُفر عامرة وإن كانت المواد شحيحة. ورغم جوعنا لم نفتقر للإبداع ولا للابتكار، فكانت لنا في مجال الطبخ ضمن الحصار مفاجآت كثيرة.

عن نفسي أنا ورامي، فقد التفتنا لفكرة زراعة الأسطح بما توفر بين أيدينا من بذور لنباتات قابلة للأكل.

يوم نبتت عروق الخس كان يوم عيد بالنسبة إلينا. أمرٌ أشبه بالوصول إلى ابتكار شيء فريد في ورشة التصنيع، ويوم نضجت ثمار الكوسا احتفلنا بمائدة شهية، وإن خلت من اللحم الذي نسينا طعمه، أو من الأرز، لكننا كنا أصدقاء

مع البرغل كثيراً.

ومع ذلك لم يكن التفكير بالطعام يستحوذ على تفكيرنا ضمن التغيرات الرهيبة التي تحصل كل يوم، فلأول مرة يتقدم النظام بعساكره أكثر، وتحتدم المواجهات بشكل أكبر.

يومها ورغم شدة جوعنا تركنا الطعام على حاله وانطلقنا لنحاول سد بعض الثغرات التي بدأت تتسع في الخالدية[٨]، وقد ركز النظام هجماته على جامع خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث هناك قبره، وذلك ليكسر شوكتنا، وهو الذي يعلم تماماً بأنه الشخصية الأكثر محبة ومكانة في قلوب أهل المدينة، وبأن اسمه على لسان الصغير قبل الكبير، فالكل يحاول أن يحذو حذوه، وكيف لا يغتاظ ونحن الذين رفعنا دائماً شعاراً وهتافاً أننا أحفاد خالد، ونحن الذين قد وضعنا نصب أعيننا كلمات قالها على فراش موته وهو سيف الله المسلول، تلك الكلمات التي نُقشت على لوح حجري ضخم، ووضعت في ساحة المسجد ليراها كل الزائرين، والتي تقول: « شهدت مائة زحف أو زهائها، ولم يبق مني موضع شبر إلا وبه ضربة سيف أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء».

تلك اللوحة الرائعة التي استهدفوها أيضاً بالقصف وكأن ثأرهم مع خالد بن الوليد نفسه – رضي الله عنه- . قد رأيتها مقصوفة بحالة يُرثى لها، ولم يبقَ من الكتابة سوى عبارة « فلا نامت أعين الجبناء» ! يومها ناديت محموداً ليلتقط صورة لها

٨ حي الخالدية هو من الأحياء العريقة في مدينة حمص السورية، سمي بهذه التسمية نسبة إلى خالد بن الوليد وذلك لوجود قبر الصحابي فيه وهناك مسجد يقع داخله القبر إلى جانب قبر ابن خالد ابن الوليد. وقد تم تجديد المسجد عدة مرات قبل وبعد العهد العثماني.

تبقى للتاريخ، لعل الناس تدرك كيف تنتهك الحرمات يوم تنام أعين الجبناء.

في تاريخ ١٢-٧-٢٠١٣

واصل النظام هجماته القوية، وحاولنا بكل ما نملك أن نصدّه، غير أنه استولى على كتل سكنية مجاورة، وأصاب بعض المقاتلين منا، يومها حاولنا إنقاذهم وإسعافهم بكل ما وسعنا، لكن النظام وحلفاءه من الشيعة « حزب الله» قد تسللوا للجامع بإعلامهم، وأذاعوا من محطاتهم بشماتة أنهم استولوا عليه، لنرى فجيعتنا على الشاشات، فلا تتسع الحياة لحزن ولا لقهر، ولتهطل الاتصالات والاستفسارات من كل الذين هم خارج الحصار ممن ظنوا أننا سنصمد للأبد دون ذخيرة أو طعام أو مدد، أجل لقد كان سقوطاً مدوياً لم يتوقعه أحد، لكنها نتيجة طبيعية برأيي ولولا أبطال هنا يدافعون بأرواحهم عن العدية لسقطت في أيدي الطغاة منذ زمن.

كثفنا انتشارنا هناك، وقام فريق بإجلاء كل العائلات من المنطقة تحسباً من تقدم النظام بجيشه أكثر، ونشرنا القناصين منا ليصدوا أي تحرك عند طريق حماة الذي هو جزء ملاصق للحي، وبعد أن سقط معظم حي الخالدية، انشطرنا كثوار إلى قسمين، وبات جامع خالد بن الوليد هو الذي يفصل بيننا وبين إخوتنا على الضفة الأخرى، فكان جامع خالد بكل أسف لجيش النظام. أصبحت أحياء القصور و القرابيص و جورة الشياح قسماً واحداً، إضافة للبساتين التي لم تكن قد سقطت بعد، وحمص القديمة و الوادي القسم التاني.

كان هنالك نفق قديم منذ أول الحصار بين القسمين المنشطرين، أصبح هذا النفق هو صلة الوصل الوحيدة واليتيمة بين القسمين. الأمر الذي أعطانا

القدرة على الحركة والتواصل بشكل أكبر.

بعد أيام من سقوط جزء كبير من الخالدية، أتى محمود ومعه بعض الأشخاص ليقابلوا الناس ويحرضوهم لإخلاء حمص القديمة بشكل كامل، كخطوة وجدوها ضرورية للدفع باتجاه الخروج الكلي من حمص القديمة، وقد كانوا يمنونهم بالانتقال إلى الوعر، وبأن هذه المسألة بديهي ومفروغ من حلّها، وبالفعل استجاب لهم الناس، فتجمعوا في حي القرابيص، وأخلوا بيوتهم تاركين ما فيها من طعام، باعتبارهم سيخرجون ولن يحتاجوا إليه.

أخذ الشباب الطعام من البيوت الخالية، إذ أنه كنز بالنسبة إليهم، ولكن المشكلة أن العائلات لم يتم إجلاؤها، ولم يتمكن أحد من تأمين طعام إضافي، وخلال عشر أيام بعدها سقطت الخالدية ككل.

وكان أن ترك كثير من المقاتلين حمص القديمة، وتوجهوا إلى جورة الشياح، كل المجموعات والمقاتلين أخلوا أمكنتهم، وبات الناس في حالة ذهول فقد تم استهلاك ما تبقى من طعام، ولم يجدوا تلك الوعود بالخروج، فتأزم موقفهم، وباتوا بلا طعام وأيضاً بلا قدرة على مغادرة الحي، فساد الخوف والتخبط والجزع، ورأيت اليأس بعينيّ في وجوه الشباب، وشعرت بالموت يحوم حولنا. تمنيت لو استطعت إغاثتهم ولو اقتطعت جزءاً من جسدي لأحميهم من ذلك الألم العملاق الذي استحوذ عليهم، تمنيت لو أقدم لهم عبوات من الأمل، فأنا لن أحتمل رؤية الوجوه التي كانت واثقة إلى أعلى درجات الثقة ذات يوم، شجاعة إلى أقصى حد من الشجاعة، قوية مؤمنة محتسبة، لم أحتمل أن أرى نظرة الانكسار في عيونها.

فقط تمنيت لو امتلكوا جزءاً من صبر حذيفة وجلده، فقد كان لا يأكل إلا مثل طعامهم، ويقوم على مهامه اليومية دون كسل أو تراخ، لم ينكسر له طرف، ولا انهزمت روحه الأبية، بل استمر بما كان يفعله، وكأنه اليوم الأول لحمله السلاح وإعلانه ضرورة الدفاع عن المدينة وأهلها. تلك السكينة التي لم أعدها إلا في قلب مؤمن رأيت الإسلام مجسداً في تعامله وأخلاقه، أكثر منه في كلامه أو شعاراته. وقد كنت في الآونة الأخيرة أحب أن ألازمه دائماً لأتعلم منه الصبر، ولأبتعد عن الأقاويل والشائعات وأجواء الشجارات، كنت أريد أن أستعيد روحي التي أعلنت الجهاد يوماً في سبيل الله، فهي تريد الأجر في العسر واليسر، كنت أحب حذيفة من أعماق قلبي، لأنني كنت أشعر بأنني أكثر إنسانية معه.

(32)

أيادينا التي التقت لتحفر أنفاق النجاة
ستشهر علينا يوماً
وذرّات التراب التي حررناها من أعماق الأرض
لن تعود أسيرة كما كانت
فقد ذاقت لذّة العون وإن اغبرّت بها أقدامنا.

رامي

حضرت اجتماعين عُقدا بين أهل الرأي في المحاصرة. طرح فيهما وبقوة ترك حمص القديمة بشكل كامل والانتقال للقصور وجورة الشياح، وكانت بعض الكتائب موعودة بشباب سيأتون من الوعر ليحلوا مكان المنسحبين، فتحل الأزمة، وعلى هذا الأساس انفض الاجتماع الأول، وفي اليوم التالي، بدا وكأن قدوم الشباب من الوعر غير مؤكد، وبدا الوضع محرجاً للقادة الذين وعدوا، وكان البحث عن حل آخر أشبه بمعجزة، حتى وقف أحد القادة ومعه الطبيب حمزة وكان مسؤولاً عن المشفى، وقال بصوت جهوري وبلغة عاطفية قوية، بأننا نحن جماعة الطبية قد قررنا البقاء في حمص القديمة، ولن نتخلَّ عنها أبداً، فما الذي يلزمكم حتى نصمد؟

قالوا له: يلزمنا ثلاثة أنفاق تحتاج إلى حفر، فقال:

من اليوم فصاعداً أنا والأطباء كلهم معي سننزل للحفر، وسنتناوب على ذلك كل أربع وعشرين ساعة، ولن نتوقف حتى ننجز هذا العمل.

بدأ الحماس يدب في الوجوه فجأة العيون تلمع وقد راودها الأمل من جديد في إمكانية التوافق على عمل، كان الأغلبية قد التزموا صمتاً وتركوا الدور لمحدثهم المفوّه أن يوصل رسالتهم بأفضل وسيلة ممكنة، كانت الحرقة بادية لا تخفى، والرغبة بالانطلاق لا يحدّها قيد، فبدأت الموافقات على الفكرة تنهال، وكان هناك اثنان من الإعلاميين حضروا الاجتماع أيضاً، فأعلنوا رغبة قوية بالمشاركة، وهنا التزم الصمت من كانوا يدعو للمغادرة، وقالوا: إذا كانت هناك أنفاق فسنبقى.

وفعلاً.. بدأ الحفر، وشارك فيه شباب الكتائب، والقادة وحتى المشايخ وبعض المسؤولين عن الإغاثة والإعلام كلهم شاركوا بالحفر، وكذلك عدد لا بأس به ممن كانوا يفكرون بالخروج حلاً أوحد. واستمر الحفر حتى أنجزت الأنفاق، ضمن كتلتين منفصلتين تماماً في الحي، فساهمت بنقل الجرحى وإنقاذهم، وأعانتنا على التنقل وخدمة المكانين المنفصلين بكل ما نستطيع من قدرة.

غير أن الفجوة ازدادت في نفوس أرهقت، وبعد هذا الكم من التضحيات، لم يستسغ معظمنا فكرة التنازل عن هذه الأرض بأي ثمن.

كنت أسير في الشوارع والأزقة فأقرأ عليها بعض العبارات الهجومية، « إن أردت الرحيل إلى الجورة فارحل، ولكن اترك سلاحك للرجال» ، « من هنا طريق الجبناء» . وأصبحت حمص القديمة هادئة جداً، كأنها فارغة، مثل مصيف في

فصل الشتاء.

وتجمعنا في حمص القديمة نحاول إيجاد معادلة توازن بين البقاء وحفظ الأنفس، وتجمع في جورة الشياح الشباب الذين أعلنوا تعبهم من الوضع ويريدون الخروج بأي طريقة. وبسقوط البساتين بشكل كامل، سقط معها آخر أمل بوصول أي سلاح أو طعام، ورغم محاولات كثيرة لاستعادتها، بقيت في حوزة النظام، لأن الانقسام في الرأي جعل لكل أهدافاً يسعى لتحقيقها، فتتالى الفشل، وما عدنا على قلب واحد كما حلمنا وتمنينا وسعينا، وباتت أهدافنا متفرقة، وأصبحت حمص القديمة التي كانت أشبه ببيت كبير يجمعنا ويحتوينا، أصبحت كبوابة جحيم مغلقة، تتفاقم وتعلو وتيرة المشكلات داخلها، وتشكلت حينها خلية الأزمة، وبدأ العمل على عدة محاور، منها التخطيط لعملية عسكرية سريعة، وبدأ محمود ومن معه بالتحريض والتشكيك في نيات المتمسكين بالبقاء، وبأن القادة قد سمحوا عن قصد بتسليم البساتين كي تغلق حمص القديمة على الجميع. وبدأت حركات التخوين والتشكيك في النوايا ككابوس شنيع تمنيت لو أنني كنت مع زمرة من استشهدوا فلم يشهدوا وصولنا إلى هذه الحالة من البؤس والشقاق والنزاع، وتتالت بعدها عدة عمليات ومعارك صغيرة مؤلمة باءت كلها بالفشل.

في تلك اللحظات الحرجة وصلتني منها رسالة أخيرة، فيها وداعان..

الأول وداع السّفر، فقد قررت مغادرة البلاد بحثاً عن الهدوء والاستقرار، والثاني وداع انفكاك الخطبة، إذ أن الصبر على انتظاري طال، وقد لا أُكتب من الناجين، وهي لا تريد الارتباط بشبح إنسان.

كان خذلان العالم كله في كفَّة، وخذلاني منها في كفَّة أخرى، وكنت أدعو الله أن ينزل على قلبي المكلوم الصبر والسّكينة، وأن يعوضني في مصيبتي خيراً، أو أن يقبضني إليه شهيداً، فغياب الصبر هو غياب الحياة..

بعد مدّة أيقنت أن معمل الصبر لا يُنتج إلا للعاملين، فقررت ألا أهدأ لحظة، متفانياً في سبيل ما آمنت به، وأوذيت لأجله.

(33)

لا يمكن أن أتخيّلكم واهنين..
كيف؟
وأنا أرى الشّمس تُشرق من جباهكم المغبرّة برماد المعركة.

مؤمنة

بيننا مسافة ثلاثة كيلومترات أو أقل، مسافة وجع يتضاعف كلما طالت مدة الحصار. هذا الصّباح حاولت التخاطب مع سرب من الحمام لأقنعه أن يحلّق فوق مكانكم.

لم يستجب الحمام وقال: دعينا من أجواء مشحونة بالموت والرصاص.

فكرت في طرق شتى لفك الحصار، تمنيت مساعدة الثوار في حفر نفق يوصل إليكم، قالوا لي أنكم تحفرون أيضاً، وسألت نفسي هل يجتمع شباب حمص تحت الأرض أحياء؟!!

ليتهم يفعلون!

فكرت بصناعة طائرة ورقية خارقة، تحمل بعض الطعام، ولو حبّات من التمر. خمنت أنهم سيغتالونها أيضاً.

فكرت أن أجازف بنفسي لأنقل الطعام، وليطلقوا النار علي، فأي معنى للحياة

إن بتنا متخمين فيما تموتون جوعاً.

قالوا لي أنكم لازلتم تحرسون ثغوركم، وإن كان أحدكم لا يستطيع أن يحمل البندقية من الجوع والتعب، وبأنكم في أسوأ الأحوال إن تأكد هلاككم جوعاً ستهاجمون الجيش دفعة واحدة، حتى لو قتلوا نصفكم.

قالوا لي أن وجوهكم باتت غريبة، نظراتكم باتت تائهة، وملامحكم مجهدة، ورغم ذلك لم تفتنكم المحنة، بل تماسكتم، وتحاملتم على الجوع وقد أبيتم الذل لتحرسوا هذه الأرض، كم أغبط هذه الأرض التي تحرسونها عليكم، على صبر ومصابرة، على إيمان وإباء.

إنني حتى هذه اللحظة نادمة لأنني تركتكم، كنت أريد أن أكون قربكم لأحمل بعض العبء، لأشعر أنني لا أراقب ما يحدث وحسب، لأضع لي بصمة ما قرب بصماتكم التي حفرت عميقاً.

إنني خائفة ربما لأنني لم أمتلك هذه القوة التي تمتلكونها، وهذا الثبات، لكن أعدكم أن أحاول مثلكم.

قالوا لي أن أيأس من عودتكم، التزمت صمتاً، فقد ضاع صوتي وأنا أنادي من ينجدكم.

(34)

قطفوا ثلاثاً وستين زهرة..
وما استطاعوا أن يقطفوا الحلم..

غياث

بدأ الناس في الحصار يقلقون على مصيرهم وهم معلقون في حالة لا حسم فيها، فلا هي معركة مواجهة ونيل من النظام بسبب نفاد الذخيرة وانقطاع سبل الدعم الخارجي، ولا هي حلول لإخراجهم من الحصار، فازداد الضغط على القادة للقيام بعملية سريعة رغبة بالخلاص.

وتحت كثير من الضغط، بدأ التجهيز لمعركة المطاحن بالتخطيط العسكري والرصد وحفر الأنفاق، وأيضاً بتجهيز السيارة والتنسيق مع باقي الكتائب.

في تلك الفترة بدأ الجيش حملة واسعة وضع فيها كل قوته، من أسطوانات وقصف، وخسر الثوار نقطتان في وادي السايح، وأخذ الجيش يحشد أكثر وأكثر، وبدأت معاناتنا تزداد، فنحن مكلفون بسد الفراغ الحاصل ضمن نقاط الحراسة التي تركها سوانا من شباب استسلموا لليأس، فقرروا تسوية أمورهم مع النظام أو لزوم أماكنهم وعدم المشاركة في العمل بانتظار الموت أو الرحيل.

كنا نقف في النقاط ساعات طويلة متأهبين، متيقظين لأية حركة غدر متوقعة،

ونحن نحاول الحفاظ على ما معنا من ذخيرة ما أمكن، فللرصاصة قيمتها إذ أنها لا تُعوّض. كما كنا لا نتناول إلا وجبة واحدة هزيلة في اليوم، عبارة عن حساء البرغل الذي لا يُسمن أو يُغني من جوع، فالمخازن قد نفدت، ولا طعام يمكن أن يجعلنا نصمد إن طال حصارنا أكثر، وما لنا إلا رحمة الله.

أذكر أنني قد دخلت الحصار ووزني كان سبعين كيلو غراماً، لست أدري لِمَ وافقت أن أزن نفسي يوم طلب محمود مني ذلك، وقد أتى بميزان، وأراد أن يتندر بأجسادنا الهزيلة، وكأنه أفضل حالاً منا، لأجد نفسي قد خسرت عشرين كيلو غراماً في هذه الشهور الأخيرة. وهذا حال الجميع، فلم يعد أحد منا يرسل صورته لأهل أو زوجة، فالوجوه مريعة، وكأننا أشباح هزيلة.

فضلاً عن الوهن الذي عانينا منه، فحمل السلاح بوزنه بات مهمة شاقة، فكيف بالصمود على الجبهات؟! كان ذلك كله أفضل حالاً من فكرة إصابة أحد منا برصاصة مهما كانت سطحية، فلا أدوية ولا سيرومات، ولا مقوّمات بقاء، وهنا بدا واضحاً وجليّاً لكل واحد منا أن حمص باتت قابلة للسقوط في أية لحظة، غير أن آمالنا كانت معقودة على معركة نهاجم فيها النظام، ونكسر طوق الحصار. وفعلاً توافقوا على بدء عملية جديدة في منطقة المطاحن، وبعد كثير من دراسة وإعداد توجه الشباب المكلفون بالعملية ومعهم محمود، ودخلوا محور المطاحن.

كنت سأرافقهم لولا إصابتي في قدمي إثر شظية اخترقت منطقة الكعب، فصار السير عسيراً، وكنت أتابع من إحدى غرفتي العمليات مع الشباب سير العمليات، وفي قلبي حسرة كوني لست معهم لكنني كنت حاضراً في غرفة العمليات.

الغرفة كانت مزدحمة جداً، رجال تأتي، ورجال تغادر، الإضاءة ضعيفة، مدفأة واحدة تدفعنا لنتحلق حولها كأم حنون قد صنعها الشباب بطريقة يدوية من حراق الحمام، لعلهم يخففون حدة البرد الشديد، وهم بثيابهم المبتلة يحاولون تجفيفها، وقد خرجوا منسحبين من النفق المتلئ بالماء. الأرض ملطخة بالطين لكثرة الخارجين والعائدين، هناك شباب نيام على الأرض لفرط التعب، قد التحفوا بعض الأغطية التي حصلوا عليها من البيوت المجاورة، علامات الإرهاق الشديد بادية على الجميع، وبشدة على وجوه القادة المخططين والمشرفين على العملية، فالهموم تجتاحهم من كل مكانٍ كذئاب جائعة تريد أن تفترسهم بأنيابها، هموم مواجهة من يهددونهم بفتنة كبيرة في حال لم يُتحرّك لتغيير الوضع، وهمّ العائلات وتأمين الطعام لهم، وهمّ حمص التي على وشك أن تسلّم، وهمّ الثورة وإمكانية انحدارها وتوقّفها لتظهر شماتة الأعداء، ويعود الظلم يعربد من جديد. اللاسلكيات تملأ المكان، محاولات الاتصال مستمرة بالشباب الذين عرفنا أنهم كُشِف أمرهم، وحوصروا، وقد يكتشف مكانهم الجيش في أية لحظة.

وجوه القادة غائمة أيضاً، منهم من سحب شبابه وهو يؤكد أنها معركة خاسرة منذ البداية، ومنهم من كان يخاطب شبابه والناس، ويحاول إخبارهم جزءاً من الحقيقة أن النجاة أقرب للمستحيل. هم يريدون أن يحظوا فقط بدقائق نوم قليلة، فالعقول توقفت عن العمل، وكلّت من كثرة الإعياء..

قائد ثالث كان يصرخ، وله أخوان مع الشباب الذين حوصروا تحت الأرض بين الحياة والموت.

دخل شباب آخرون عادوا بعد أن تركوا مواقعهم، وحاولوا الانسحاب والجيش

يطاردهم، فساروا قرابة ثلاثة أرباع الساعة ضمن مجرور طويل، وجوههم حمراء وهم يسعلون بشدة، ولا يقدرون على الكلام، مما بيّن لنا أن الجيش استخدم غازاً كيماوياً ضدهم.

كانت المشكلة أن أحداً من الجيش اكتشف وجود الشباب وتسللهم، فأطلقوا عليه النار، لكنه هرب، وأتت مدرعة للمكان، واكتشفت مكانهم، وبدأت بإطلاق النار مما أدى لاستشهاد شابين.

وهكذا لم يعد بإمكانهم التقدم أو التراجع، فرصاص المدرعة حاول أن يحصدهم، فتراجعوا للفتحة الأولى، وعَلِمَ الجيش بمكانهم، وبدأ الحصار الفعلي عليهم.

عرفت غرفة عمليات الثوار بهذا عبر اتصال مع قائد ميداني، الذي أخبرهم أنه مصاب مع خمسة عشر شاباً، ومثلهم أو أكثر قد استشهدوا، وكان عدد الشباب ككل قرابة الستين. وكان كلامه متقطعاً ومتناقضاً مما جعل الشك يتسلل إلى القلوب في كونهم قد أصبحوا في قبضة الجيش، وكانت المخاوف أنهم يجبرونه على التحدث ليقود الثوار إلى كمين.

بعد سويعات تُؤكِّد أنه غير معتقل، لكنه كان يخبرنا بازدياد عدد الشهداء والجرحى، ونسمع أصوات الاشتباكات والتفجيرات المتصاعدة من ذلك الحي المحاصر مما زاد التوتر، والجميع كان يسأل، ما أخبار فلان؟ وهل نجا فلان؟ فكل واحد منا له أخ ورفيق وحبيب قلقٌ عليه، ويرجو الله له النجاة.

الجوع كان ينهشنا، وكنا نبحث في تلك الأثناء عن بيت نتوضأ فيه ونصلي، فوجدنا في بيت نعنعاً يابساً ودبس رمان وماء، فأخذنا نشرب، ونتناوب على شربه حتى أنهيناه لشدة الجوع.

في عتمة الغرفة كنا نسمع..

استشهد فلان، لا نعرف من قالها بسبب الزحام والعتمة، كل اسم كان يصدر كان يُدمي قلباً ما بيننا، وكان الأمل يتلاشى بإنقاذهم مع بزوغ الفجر وازدياد الضوء.

الثامنة صباحاً.

أصوات انفجارات رهيبة، وإطلاق نار من كل أنواع الأسلحة، بدا للجميع أن أمراً جللاً يحدث..آخر كلمات المحاصرين، أن ادعوا لنا فقد بدأ الاقتحام..

الشعور بالعجز قاتل، نسمع كل هذه الأصوات ولا نملك إلا أن نصمت وننظر لبعضنا، نشعر بمعارك رهيبة في أدمغتنا تمزقنا من الداخل.

ساعات مرت من صمت كئيب، وخلت الغرفة تدريجياً من معالم الحياة.

وجود النفق يهددنا بدخول الجيش إلينا، وإبادتنا جميعاً، وقلوبنا معلقة بالأسود الستين الذين دخلوا النفق، فحوصروا، وباتت فكرة نجاتهم مستحيلة.

كل واحد منهم كان لنا أخاً أو صديقاً أو قريباً، وكان علينا أن نحسم أمرنا بالقرار المر،

أجل،كان علينا تفجير النفق.

كنا نعلم تماما أن مجرد سماعنا لصوت التفجير سيقتل كل أمل داخلنا، بعودة أحد الشباب سالماً من فتحته التي توجهت إليها كل حواسنا.

أطلقنا رصاصة الرحمة على نفوسنا المعذبة، على شباب غامروا بأرواحهم، وضحّوا بدمائهم ليرسموا لنا درب الخلاص.

ثلاثة وستون زهرة قطفت من خيرة شبابنا، وعاد ممن ذهبوا ثلاثة من الشبان نجوا بأعجوبة، وسردوا علينا تفاصيل ما حدث، حدثونا عن انهيار أحد المباني

فوق الشبيحة الذين كانوا يتلذذون بالرقص على جثث الشباب. وكيف اختفوا على سقيفة أحد المنازل لوقت طويل، وكلما داهم الجيش الشقة طارت حمامة في وجوههم فتوهموا أن البيت خالٍ ورحلوا، حتى أذن الله لهؤلاء الثلاثة أن يقفلوا إلينا عائدين بعد أم كُتب لهم عمر جديد.

أما نحت فقد خرجنا من تلك الفجيعة ذاهلين عن كل شيء، عن أسئلة الناس واستفساراتهم، وشتائمهم أيضاً، عن مصير ينتظرنا لم نعد نأبه به، وقد خسرنا أغلى من نعرفهم، خرجنا نلتمس وسادة تحتوي أوجاعنا، ونوماً نطلبه لندفن آلام واقعنا ضمنه.. نحن الذين كانت ترعبنا فكرة أن نخسر العملية، فكيف لنا أن نحتمل خسارة ثلاثة وستين زهرة من شبابنا؟! ثلاثة وستين أخاً عزيزاً؟! خسرنا دروعاً حامية من غدرات الزمان، وتلك الذخيرة التي أُنهكنا لنجمعها ذهبت أيضاً هباءً!

(35)

كانوا جائعين للأن نستسلم..
استلأنا كراسة، ولم يشبعوا ذلاً..

رامي

كنت أتابع حالة نضال بكثير من تخوف، وأذرع الأرض جيئة وذهاباً باحثاً عن الطبيب حمزة.

المشكلة أن التشخيص معروف، لقد بالغ بتناول تلك النبتة، وربما تناول معها عشباً ساماً..

العلاج هو طعام.. أي طعام! حتى الدواء مفقود، وإن وجد فلن ينفع وحده..

تباً للجوع.. والخذلان!

يتلوى نضال وهو يصرخ من فرط الألم والحمى، وأسمع هذيانه بوضوح.

لم أعد أعرفه حقاً!

أهذا هو نضال المقاتل الشرس! إنه يهذي بدعاء.. رباه أهؤلاء بشر أم ملائكة؟!..

أمهلني يا الله فرصة جديدة، افسح لي قليلاً هذه الصّخرة التي تسدّ الغار، وإن كنت قد قدّرت عليَّ يا الله أن أموت، فارزقني أن أرى أمي وزوجتي ولو لمرّة ثم

خذ روحي....

الجوعُ ثعبانٌ يتسلّى بالتهام أحدنا كلّ ليلة.. يتسلل في الخفاء، يراقبنا بعناية، ويصوّب نظره نحو الضحية، يبتلعها دون رحمة ويمضي..

تبّاً للأواني الفارغة إلا من الماء الممزوج بالبهارات السبعة، والذي نوهم أنفسنا كل يوم ونحن نتناوله بأنه طعام.

محمود أصابته القرحة، ورفاقنا محمد وعبد الله يتقيئان دماً بعد أن تناولا الكثير من العشبة التي وجدناها على الرّصيف..

قلتُ لنضال: لا تُسرف في تناولها، لكن الجوع كافر!

أجابني بمرح:

اخفض صوتك، سيتهمك بعض المتحذلقين أنك تكفيريّ!

وما الفرق؟! لقد نُسبت إلينا تهم عديدة أولها الإرهاب وآخرها الجنون، فهل سيشكل ذلك عائقاً إن اتهمونا بالتكفير والتعصّب لأننا نقاوم اليأس والحصار بإيماننا؟

فليقولوها.. أنا متعصّب لهذه الأرض..

أترى يا غياث؟ هذا التراب ذهبت فداؤه أرواح الأحبّة... فلنأكل من عشب الرّصيف أو لنمُت جوعاً..

لم أستطع أن أوقفه عن الكلام، فقد تلقى مؤخراً أخباراً سيئة عن أهله الذين ظن أنهم في مأمن ضمن حي الغوطة، فقد اعتقلوا أخاه، ضربوا والده المسن على ظهره ببنادقهم الصدئة، أهانوه وشتموا الدين، هددوا أمه بالقتل وأخواته بالاعتقال.

بعد شهر اتصلوا بوالده وطلبوا منه الحضور إلى فرع الأمن العسكري، قال لهم لا أستطيع الحضور، لقد أصابه شلل بسبب تلك الضربات المبرحة على عموده الفقري، لم يجرؤ أن يخبرهم عن السبب، قالوا له، أرسل أي مخلوق ليتسلم جثّة ابنك، وليوقّع على ورقة تؤكد أنه مات على يد العصابات المسلّحة..

ذهبت والدته وقريبها لتسلم الجثّة، أغمي عليها حين تسلمتها، فلم تستطع التعرف إلى وجهه بفعل التعذيب..

كدمات ونزف وصعق بالكهرباء، كسورٌ في الصدر والجمجمة، وأخيراً.. طلقة نارية في الرأس..

بقيت أمه ذاهلة أسبوعاً لا تكلّم أحداً، ولا تجد للصّبر سبيلاً، اتصلت به بعد أن عجزت أن تتصبر على الفجيعة وحدها، قالت له يجب أن تخرج بأي شكل من البلاد، وأن تنجو بنفسك..

مؤخراً لم يكن يجرؤ على الحديث مع والدته، لئلا تسمع صوته الواهن، وكي تبقى صورته كما هي، بقوّته وتفاؤله وإبائه.. كما فعل عبد الرحمن وقد أوهم زوجته مؤمنة أن الطعام متوفر، وكلما حادثها عبر الإنترنت وطلبت منه فتح الكاميرا لتراه، أحضر فنجان قهوة وعبأه بالماء، وأخذ يرتشف منه ببطء ويخبرها أنها قهوة ما بعد الغداء!

طمأننا حمزة عن حالته..

بحبات من الزيتون تبرع بها أحدهم له كشيء يمكن أكله، وبعض الراحة، يمكنه النجاة..

كل ما أضمرته في قلبي من دعاء ألا تكون نهاية نضال جوعاً، وأكثر ما عاندني

بـه عقـلي هـو أن نـموت جوعـاً، ولا نـموت ركوعـاً لظـالم..
تحسن نضال بعد ثلاثة أيام، لكن المشكلة كانت تتفاقم.

(36)

قد تأنس العيش مع الجرذان أحياناً..
ولا تأنس العيش مع من يخالفك من بني الإنسان..

غياث

كنا نحاول رصد تحركات الجيش أنا ومحمود، لحظة سمعنا حركة غريبة.
تأهبنـا ولقّمنـا السـلاح اسـتعداداً لمواجهـة جنـدي النظـام المعتـوه الـذي قـرر أن يتسـلل إلينـا..
حبسنا أنفاسنا للحظة، وترقبنا..
لا أحد هنا!
قـال محمـود، فـيما سمعـت الحركـة مجـدداً، والتفـتّ! لقـد كان جـرذاً كبـير الحجـم يقفـز فـوق الـركام..
انتابتـني حـالة ضحـك هسـتيري، فـيما بـقي محمـود واجمـاً عابسـاً، وقـال وقـد ألـقى سـلاحه جانبـاً:
الثورة أهلكتنا..
قالها محمود في لحظة يأس.
وأجبته بحدّة وقد أفقدني الموقف صوابي أنا الآخر:

بل نحن من أهلكنا أنفسنا بأنفسنا، حين خذل بعضنا بعضاً، حين تفرقت صفوفنا لتفرّق قلوبنا، وحين اعتمدنا على آنيّة الحلول ولم نفكر بحلول طويلة المدى.

ها نحن نموت جوعاً وذلّاً بسبب الثورة!

لا تلم الثورة، فقد خرجنا لنقهر كل ذُلٍّ وقهرٍ وضياع، لا تلمها فقد ذكّرت هذا الشعب المغيّب بهوية انتزعوها منا رغماً عنا.. لا تلمها فقد عرَّت الجميع، وأظهرت حقيقة الوجوه ومن الخائن!

كل الناس خونة..

ونحن أيضاً إذا تخلينا عن ثوابتنا..

لم تبقَ هنالك ثوابت..

الثوابت لا تختفي، ولا تنتهي، ولا تتلاشى، ولا ترحل.. نحن من نرحل.. وتبقى ثوابتنا...

الجوع يبقيك في عالم المثاليات..

بل الجوع من يُغيّبك عن حقيقتك، وهويتك، وما خرجت لأجله..

أنت معتوه..

أنا معتوه إذا أكلت هذه الليلة هنا.. سأنام في الطابق السفلي مع الجرذان فهذا أفضل من الثرثرة الفارغة والجدال دون جدوى.

(37)

يوم تأكدنا أن العالم كله لا يرانا
كنا على يقين أن الله يرانا ويسمعنا
وسيجعل لنا مخرجاً.

غياث

قرابة عامين في الحصار، ولا أحد يأبه بنا، ولا يهمه من أمرنا أي شيء.

أصبحت حمص القديمة مكاناً للأشباح وأشباه البشر، ومحمود الذي دخل حمص القديمة وهو يزن تسعين كيلو غراماً نزل وزنه إلى النصف، حتى ثيابه باتت مضحكة عليه، وقد ارتداها مؤقتاً ريثما يجد مخرجاً.

أضحك عليه وأنا أتأمل منظره وأذكره، كم كان يبذل جهداً في الحمية، ولا يقاومها، فيعود وزنه للازدياد، أذكره بدعوة الغداء التي وجهها لنا نضال بعد تعافيه.. يومها كنا نتهيأ بحماس منقطع النظير لتناول الطعام، وقد انتابنا بعض الشك فمن أين له بطعام وقد كاد يهلك جوعاً. رغم ذلك تشبثنا بالأمل، وقد وضعنا في الحسبان أنها وجبة متميزة، من أين وكيف؟. ليس مهماً، المهم أن نضع في بطوننا الخاوية شيئاً نأكله..

دخل حذيفة ورأى صاحبنا يشوي شيئاً ما على النار، فصرخ به مستنكراً..

لماذا تضعونها على النار؟ الآن ستتماسك وسيغدو طعمها كطعم الحذاء!!

وضعنا طعامنا الأثير على الطاولة، وكلما تناولت لقمة منه تذكرت الحذاء، على الأقل كنت أعرف ما نأكله، بينما غيري تناولوا الطعام من الجوع دون أن يسألوا عن مكوناته، ولكنهم حين عرفوا أنهم تناولوا جلود البقر القديمة، لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك وأيضاً من البكاء!

وأقول لمحمود ساخراً:

لقد بت مرشحاً كي تصبح عارض أزياء، فمقاييسك عالمية.

ويضحك هو ويقول:

لا أجد لي مجالاً سوى في إعلانات التبرع للمجاعات العالمية، سيتعاطف الجمهور معي خاصة وجهي البريء!

تختفي ابتسامتي وأنا أتخيل الفكرة، وأهمهم في نفسي: تباً للعالم الذي لا يرانا، إننا نذوب ونتلاشى كالشمع لنضيء للحاضر والغد درب الحرية والكرامة، وهم ينظرون إلينا كهمّ يدفع ضميرهم ليؤنبهم، ويذكّرهم بضرورة أن يخوضوا معركة لا يرغبون بخوضها.

أتذكر قوله تعالى: « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون».

وأسمع تذمر محمود وقد غابت ضحكته وهو يراقب اثنين من الثوار يتشاجران، قارعاً الحائط بقبضة يده، وهو يقول:

انظر يا غياث، ما قتلنا إلا الخلاف، وكأننا محاصرون بأنفسنا قبل أن نحاصر بأعدائنا.. ليتني لم أتغابى وأدخل الحصار على قدمي، لقد ظننت أننا سنكون

على قلب رجل واحد، وأن إخوة لنا سينجدوننا، وحينئذ لا أحد سيهزمنا، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً جداً..

أغمض، وأحاول التفكير بما يحدث، كيف وصلنا إلى هذا الحد، وما الذي أوصلنا إلى هنا؟!

أردد بقية الآية مسموعة بوضوح أكثر من أي وقت مضى هذه المرّة.. « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون».

وأسأله، وقد كثر تضجره من الوضع:

أتفكر أن تقوم بتسوية مع النظام كما فعل آخرون؟

ويصدمه سؤالي، ويحمر وجهه غضباً، ويقول:

لم أدخل عبر النفق وأغامر لأسلّم نفسي إلى هؤلاء الأوغاد، لكنني لا ألوم أحداً قرر مغادرة هذا الجحيم..

هناك خيط أمل دقيق لازلت متعلقاً به، ولعل وعساه يتجاوز حيز الحلم ليغدو واقعاً.

وأسمع صوت الجوع يصرخ في معدته الخاوية، وأجده يضرب بطنه بقبضة يده، ويقول:

كفى.. كفى..

يغادر غاضباً، وأسأله إلى أين؟

فيجيب:

سألتقط من تلك العشبة على أطراف الرصيف ما أُسكت به جوعي، ولتكن

سامة أو قاتلة، ما عدت آبه بحياة العذاب هذه. ويرن هاتفي المحمول، وأنادي سريعاً محمود، وأصيح:

أبشر يا محمود.. المساعدات قادمة، لقد تُوصِّل إلى اتفاق..

ويكبّر مبتهجاً، ويسألني، وماذا بعد؟

فأصمت طويلاً أحاول استجداء حروفي كي تنطق، وأقول له:

خروج للعائلات والجرحى وكل من يرغب بالخروج..

شاهدت انعكاس عبارتي الأخيرة على وجهه، فشعرت بخيبة قاتلة..

(38)

ستفتقر الصقور تلك العصافير الصغيرة المغادرة..
لكنها ستعمل أكثر للأجل
أن تجعل سماءها بلا قنابل أو رصاص.

رامي

غالية.. اذهبي وودّعي عمو رامي..

تضرب غالية بقدمها الصغيرة الأرض، تبدي اعتراضاً وأسفاً، ولم لا تفعل، وقد تنفست عبق الثورة، وامتزجت بها روحها هنا..

لا أريد يا ماما، اذهبوا أنتم، أنا أريد البقاء مع إخوتي..

لكن الحافلات تنتظرنا..

وتقولها ثم تكتم دمعة، وهي تقول:

سنعود إليهم، أو.. يلحقون بنا...

لا.. لا أريد..

وأحملها بين يدي وأعانقها، وأحدق في عينيها الملائكيتين وأفكر.. أتراه يكون الوداع الأخير؟!

غالية التي وعت هذه الحياة في الحصار، وتعلمت المشي على أيدينا نحن الثوار، وشاطرتنا لعب الكرة والهتاف، وطلبت أن تحمل البندقية مثلما نحملها، فقلنا لها بأنها ثقيلة، ولا تليق بالأميرات الصغيرات، فقد خُلقن لنحميهن بأرواحنا..

فصدقت هي وخذلناها نحن، لم نستطع حمايتها ولا حتى تأمين الطعام لها، كانت تنمو وغيرها من الصغار بقدرة ربانية، لا حليب هنا ولا طعام، لا شيء سوى رحمة الله..

غالية ابنة صديقي الغالي محمد الذي عرفني الحصار عليه، وهو من القلائل الذين لم يخرجوا أسرهم من الحصار منذ البداية إذ كان شعارهم، نعيش معاً بكرامة أو نموت معاً..

ها هو الاتفاق يفرق عائلته عنه، وها هي زوجته وابنته الوحيدة يفارقانه بوداع مشوب بالصمت والدموع.. وترفض غالية وداعه ووداعنا..

وتلقي نظرة على الحي، وعلى الجميع، وهك يتأهبون للوداع، وأحاول أن أفكر بما يدور في ذهن الصغيرة، ما الذي علق قلبها بهذا الدمار المحيط؟ حيث لا حدائق ولا ألعاب ولا ألوان زهر، حتى القطط جاعت فهربت أو ماتت أو أُكلت..

غالية التي كانت تختفي يوم تنهال الصواريخ في حجر أمها كلما سمعت صفارة انطلاقه، منتظرة لحظة انفجاره، وحين ينفجر بعيداً ترفع وجهها المغطى بخصلات شعرها الأشقر المفلفل، وتقول مبتسمة:

الحمد لله.. ما صار لنا شي!

جملة كان يرددها أبويها ليطمئناها عندما كانت تخاف وتبكي في البداية، لكنها

اعتادت بعد ذلك، وأصبحت كمن يلعب مع الصاروخ لعبة الاختفاء، وهي التي علقتنا جميعاً بحبها، بكلماتها البريئة وضحكاتها التي كانت أجمل من شقشقة الطيور البعيدة، غالية كانت بسمتنا التي لا يمر يوم إلا ونمر به أمام منزلهم لنجدها جالسة عند عتبة الباب تراقب أطفال الحي يلعبون، أو تشارك هي باللعب، وحين ترانا تقفز، وتنادينا بأسمائنا، ولا تمل من ذات الطلب..

بدي شيل بارودة..

ونقول لها: السلاح للرجال، وتقول بإباء طفولي لذيذ..

البارودة إلنا كلنا.. أنا ما بلعبكم بالطابة؟ خلوني روح معكم..

ويأتي صوت أمها مع الجارات من الداخل، تناديها لتكف عن إزعاجنا، ولا نكف نحن عن طلب إزعاجها المحبب، فلم نتخيل أن يمر يوم بلا ضحكة غالية، وبسمتها وكلماتها، ولم نتخيل يوماً أن تبتعد عنا غالية بهذه الطريقة، ولا أن يرحل صديقي هادي الذي أتقن جداول الضرب والقسمة التي علمته إياها، ولم يتسنّ لي وقت كافٍ لأعلمه حسابات أخرى تتعلق بالحياة وإدراك أفخاخها وحفرها، فأوكلت أمره لمن لا ينساه وأهله، وأوصيت به هدى ورفيقاتها، أن تتعهدهم وتهتم بمتابعة تعليمهم مهما كلف ذلك من مال.

خلت الشوارع منهم فجأة، كما خلا الحي من مرح الصغار وضحكاتهم التي كانت علامة لنا على أننا أحياء، ولتكون حياة ما بعد الوداع أقسى بكثير، وأشد وقعاً على النفس وألماً من مشهد الوداع نفسه ورحيل العائلات عن حمص القديمة، وقد اتُّفِقَ على إجلائهم، وإدخال مساعدات قليلة لنا، الأمر الذي وضعنا أكثر في حيز التأهب لمواجهات أقسى، فنحن الآن ثوار فقط تقريباً،

مطوقون من كل اتجاه، ولا بصيص أمل في نجدة من الداخل أو الخارج، نحن الآن في مواجهة حقيقية مع الموت..

***

- تعاطف العالم الوهمي- وعود بالمؤازرة من الريف أو الخارج- مؤامرات الدول مع النظام

لم أعرف أكان عليَّ مسح دموعي أم دموعه؟!!

للدموع التي انسابت على لحيته البيضاء معنى يفوقُ المعاني.

عيناه كانتا تنطقانِ وجعاً.

أبو صفوان هذا الرجل المسنّ، الذي عاش هنا في الحي طوال عمره، سكن بيت والده وجدّه..

الزيتونة التي كنّا نأكل منها لعامين في الحصار زيتونته.. غرسها بيديه، كما غرس الدوالي لتعرّش فوقَ أحزاننا وقبور شهدائنا أيضاً.

البيت الذي كان يستضيفنا فيه، بحجارته السود، كان محطّة أحلامنا وأحزاننا وطموحاتنا.

كنت أراه كتلك الحجارة، جميلاً غامضاً أصيلاً.

منذ بداية الثورة وهو هنا، يساعد بكل ما أوتي من قوة وجهد، يسعف معنا الجرحى، ويعتني بهم ويدفن الشهيد فكأنما يدفن قطعة من قلبه، وكنا كلما سألناه عن الرحيل قال:

- أرضي وداري... لا أتركها.. لا أتخلى عنها لعدو..

كما عشت طوال حياتي هنا أريد أن أموت هنا..

حتى لو هدموا البيت فوق رأسي، حتى إن حولوه ركاماً..

هذا التراب فليمتزج بدمي.. ارحلوا أنتم فأنا لن أرحل.

هاهو اليوم يرغم على الرحيل، فالموت ينتظر البقية، وهو سيُرحّل إلى حي الوعر مؤقتاً ثم سينتظره مصير مجهول.

مشاهد الوداع أقسى من أن تحتملها قلوبنا، لكن لا مفر من مواجهة المصير.

***

صباح آخر من دونهم.

لم أعد أسمع شقشقة العصافير منذ أن رحلوا، ولا عاد شعاع الشمس يدفئني..

يؤكد لي حذيفة أن العصافير موجودة، وبأنه يسمع صوتها تغرّد عند النافذة المجاورة، وأؤكد أنه واهم، وبأن الصوت الذي بنى عشّاً في ذاكرتي مختلف عن الصوت الذي يتحدث عنه، الصوت مزيج ضحكاتهم وهم يلعبون في فسحة سقفها السّماء في الأوقات الفاصلة بين الرّصاصة والرّصاصة، بين القذيفة والقذيفة..

ومؤخراً بين البرميل المتفجر، والبرميل الذي لا يتفجّر..

فلطائف الله تجعل بعض ما يلقونه علينا من طائراتهم لا ينفجر، فيغدو غنيمة للمجاهدين، يفككونها بحذر، ويخرجون ما بها من مواد متفجرة، ويصنعون قنابل صغيرة ندافع فيها عن أنفسنا عند أية هجمة مباغتة، أو ندّخرها للهجمات التي نخطط لها لنحمي أنفسنا، ونحمي الصّغار.. الذين رحلوا....

بقيتُ ذاهلاً عن ما حولي بعد رحيلهم، لا تسعفني إلا الدموع..
لم تربطني بهم صلات قرابة، لكن ربطتنا المحنة، والقضيّة، وحب الأرض..
تعلّق قلبي بوجوههم الباسمة وهياكل أجسادهم التي كانت تزداد نحولاً بفعل الجوع..
كابرنا كثيراً لعلنا ننتصر معاً، لعله يكون احتفالاً فريداً، لانتصار الثابتين..
حاولوا أن يبقوا معنا، القلب قال فلتبقوا هنا..
والعقل قال.. ارحلوا.. ولا تهتموا.. فإنكم إن رحلتم باقون في عيوننا..

***

عدنا لنتجول في الأحياء، أسير مع غياث وحذيفة، كل منا يحاول أن يخفي دمعه، لكننا وما إن نقترب من بيت محمد حتى نتوقف فيصعقنا صوت نحيبه وهو جالس مكان غالية، نركض إليه لنواسيه، وقد تضاءلت همومنا أمام أحزانه.

***

نستقبل المساعدات المعدّة أصلاً لبقاء مؤقت، وكأنها بطاقة دعوة إلى جزء من حياة، أو إلى حياة برسم الموت، كان الاتفاق على كتابة بيان طلب مساعدات من المنظمات الدولية، غير أنه كان الاختلاف على صيغته، فئة قالت إن الاستجداء لغة قد تجدي، وتدفع للتعاطف، ومن ثم تلبية النداء، والشريحة

الأكبر كانت ترى محو كل عبارة فيها استجداء، فالرازق هو الله بكل الأحوال كما قال حذيفة.
كانت حالة الجوع قد تفاقمت، ودفعت بفئة من شباب الحصار لإجراء تسويات مع النظام، يدفعون مالاً أو يقدمون سلاحاً، مقابل أن يستسلموا، وينسوا فكرة الثورة، ويعودوا للعيش
في الأحياء المحتلة أو يغادروا البلاد.
أتى إلينا غياث غاضباً وقد كنت جالساً مع حذيفة ونضال.
كنا نرى في عينيه الغائرتين من الجوع دمعة، كان وجهه ينطق ألماً، وهو يتحدث عن شبان كانوا معه منذ بداية الثورة، يعملون بإخلاص في مجالات كثيرة، وقد غادروا بصمت الحصار دون أن يقولوا كلمة وداع واحدة..
لم أملك إذ رأيت ذلك الحزن في وجهه إلا وأن عانقته، وقلت له:
اليأس يفعل أكثر من ذلك..
بادرني بجواب ألجمني، وجعلني أفهم أكثر مدى ضخامة همّته:
لكن بعض الجبهات فرغت، وتحتاج إلى رجال.. بالله عليك قل لي من أين نأتي بالرجال؟!
سنتناوب ونزيد من ساعات مكوثنا على الجبهات، وسيبارك الله بالقلّة..
لا تتحدث مثل حذيفة..
كان حذيفة جالساً فقام إليه بهدوء، وقال له:
- إننا أحوج ما نكون إلى شيء واحد في محنتنا هذه.. إننا نحتاج إلى الإيمان، إن فقدناه انتهت حكايتنا نهاية أليمة..

يا بني.. بوسع خمسين رجلاً أن يصنعوا فرقاً
بوسع عشر رجال أن يصنعوا فرقاً
بوسع خمسة رجال أن يصنعوا فرقاً
بوسع رجل واحد أن يصنع فرقاً

المهم أن يعرف كل واحد دوره، رسالته وغايته، المهم أن يؤمن أنها معركة طويلة بين الخير والشَّر، وستستمر، حتى يُثبت أهل الخير من كل موقع ووظيفة ومكان أنفسهم، ويتساقط البقية على الطريق.

قلت لهم بحماس:

لن نجعلها خاسرة بإذن الله. سنقوي أنفسنا لنواجه مصيرنا بأنفسنا، فقد أهلكنا التواكل والانتظار.. سنقتلع أشواكنا بأيدينا مهما كان ذلك مؤلماً.. لقد تعلمت في هذا الحصار أمراً مهماً.. لقد تعلمت أن أحداً لا يقف بجانب المرء ما لم يقرر هو أن يقف بجانب نفسه، ولا أحد يمكن أن يخلصه ما لم يفك قيوده بيديه.

ظل نضال صامتاً، لكنه نطق أخيراً، فقال:

من خرج ليس بالضرورة قد خان الأرض، ربما نفدت طاقته ولم يعد يمتلك أدنى أسباب الصمود، ومن يدري، فلعله يخطط لعمل باتجاه آخر، أو من زاوية أخرى، وكما قال حذيفة بوسع عدد قليل أن يفعلوا الكثير المهم ألا يفقدوا بوصلتهم ضمن الأسى الحاصل والشتات.

التزمت بالصمت، وهو يفكر في معارك من اتجاهات مختلفة..

فقد كثر كلام المهاجمين، وباتت مواجهتهم أصعب من مواجهة العدو على الجبهات، فالعدو يمكن إسكاته بعيارات نارية، لكن القريب حين يطعن،

ويعلن البراءة من الثورة، ويهاجم كل من بذلوا أنفسهم لأجلها، فهنا تكمن المواجهة ويتجلى العناء.

كان الصبر هو الدواء الأوحد الذي نفتش عنه، ونسأل رب السماء أن يرحمنا فلعلها تمطر صبراً وإيماناً ويقيناً...

(39)

كان العالم ينظر إلينا كأبطال
وكنا نرى العالم ملخصاً في معركة البقاء
بقاء الفكرة.

غياث

في صباح ٨-٢-٢٠١٤
خرج أشخاص كثر من الطائفة العلوية التي ينتمي إليها بشار الأسد، خرجوا في حاراتهم المؤيدة الملتصقة بأحيائنا غاضبين، وشكلوا حاجزاً بشرياً ليمنعوا وصول الطعام إلينا، كانت عباراتهم التي يرددونها وهم يحملون اللافتات:
« لا تسمحوا بدخول القوافل- دعوا الإرهابيين يموتون جوعاً- لن يأكلوا إلا على جثّتنا - دعوا الإرهابيين يتناولون لحم القطط الشاردة».
وقد حدث فعلاً أن أطلق أحد جنودهم النار على قطة رآها تسير باتجاهنا، وذلك حين شاع أن بعض الثوار لا يجدون إلا لحم القطط يتناولونه ليبقوا على قيد الحياة، فاستكثر أن تصل تلك القطة المسكينة إلينا..
وللصدق، فقد كنت أحب القطط كثيراً، ليس طعاماً بل رفقة ومرحاً، وكانت لدي قطة ورثتها عن صديقي الشهيد خالد، وقد كانت ترافقه كظلّه، وتلحقه إلى

مكان حراسته، وتغفو قربه إن قرر النوم، أو تتمسح بقدميه بدلال في أوقات جلوسه، وكأنها فعلاً كما شبهتها له، علاقة مفاتيحه التي لا تنفصل عنه، وهو كان يحبها ويفتقدها إن اختفت للحظات تلاحق فأراً، أو تلعب مع سواه.

عندما استشهد صديقنا خالد إثر رصاصة قناص غادرة، عندما كان يحاول أن يحصل على كمية من العشبة القابلة للأكل في مكان مكشوف على القناص، بقيت قطته وحيدة، وكنت أنادي الرفاق ليتأملوا نظرة الانكسار في عينيها، فيقولون بأنني واهم، إذ كيف أمكنني قراءة مشاعر قطة، ولا ألبث أؤكد لهم أنها حزينة، وبأنها غير راغبة باللعب، وأنها لا تأكل من البرغل الذي أقدمه لها، وقد خشيت عليها أن تموت كمداً، فكنت أهتم بها وأحاول تعويضها بعض ما فقدت، ولكن أنى لي أن أحل محل الشهيد.

أما عن المساعدات التي قيل لنا أنها إنسانية، فقد كنا نترقب بقلق، وهم الذين فاوضونا قبل ذلك على دخول طعام، وقد دخل مسموماً ليترجم لغة حقدهم الذي لا يمكن أن يترجم.

بعد عناء، استطاعت لجنة الأمم المتحدة أن تدخل من جهة السوق، الساعة القديمة، وذلك على أساس أنها ستسبق السيارات، وعندما دخلوا وشاهدوا الوضع الذي نعيشه، وتحدثوا إلى بعض الثوار أصيبوا بالصدمة لهول المشهد، أحد أعضاء اللجنة كان عربياً مسلماً يتحدث مع أحد القادة الميدانيين، قال له: أنتم الآن تعملون عن الأمة كلّها، أرجوكم لا تستسلموا أو تتوقفوا، الأمة كلها قد عقدت آمالها عليكم.

وبدأت اتصالاتهم من موقعهم مع المحافظ وأفرع الأمن ليسمحوا بإدخال

السيارات، وكانوا قد هيأوا ست سيارات لإدخالها، لكن المحافظ بدأ يتهرب، ويراوغ ويجيب أنه بالإمكان إدخال سيارتين أو ثلاثة الآن، والبقية لاحقاً. لكن الرجل أصر على إدخال السيارات الست كاملة.

دخلت السيارة الأولى بشق الأنفس، وتهللت الوجوه فرحاً باستقبالها، كان الأمور عندنا على درجة عالية من التنظيم، تقدم الشباب لفتح السيارة والبدء بنقل المعونات الغذائية، لكن سرعان ما تلاشت البسمة، وحلت محلها موجة غضب كبير، تقدم المبعوثون لمعرفة ما يجري، فتحوا السيارة أمامهم، وإذ بها أواني للطبخ، ومسحوق للغسيل، ومناشف صغيرة، وبعض الأغطية.

ارتسمت خيبة الأمل على وجوهنا جميعاً، وبات محمود يشتم الجميع ويركل بقدمه الجدار وهو يقول:

انتظرنا وفاوضنا وسمحنا بإخراج العائلات، وفي النهاية مسحوق غسيل؟ وكيف نأكله؟!!

فيما ضحك حذيفة من ردة فعل محمود وقال ساخراً:

نظام شديد النظافة! ماذا نفعل معه؟!!

بدأت اتصالات مبعوث الأمم مع المحافظ، وخاطبه بلهجة شديدة الغضب، وأخذ يصرخ به، حتى أذن بدخول سيارتين من نفس الاتجاه، وكانت تحتوي أخيراً على طحين ومعكرونة، لا معلبات! لا شيء قابل للتخزين، والكميات جد قليلة، ومع ذلك وجدناها كنزاً..

بدأ الجميع متعاونين بإفراغ السيارات من حمولتها، بسرعة كبيرة تحسباً من أية حركة غدر من النظام، كنت أقف على مقربة منهم مع محمود، نحاول تغطية

الحدث ببعض الصور، فجأة باغتتنا قذائف الهاون تهطل فوق رؤوسنا، وبدأت حالة الرعب والبلبلة، وانقبض قلبي، وتلفت أفقد الجميع وسط الصياح، لكن محمود شدني من يدي ودفعني إلى داخل أحد المباني، فيما سقط في ذات اللحظة تماماً قذيفة جديدة خلفنا.

جلست على الأرض محاولاً استيعاب ما يجري، فيما كان محمود يلتقط أنفاسه بصعوبة وهو يصيح بطريقة هيستيرية..

يالك من مجنون! هل استغنيت عن روحك، سنتفقد الجميع بعد لحظة، وكي نفعل ذلك علينا أولاً ألا نموت..

لأول مرة أشعر أن محمود تقمص دور الأخ الأكبر، مع أنه دوري بامتياز، رأيت الخوف والقلق في عينيه أكبر منهما في أية مرة، رغم أنه كان معي في مبانٍ سقطت قربها براميل متفجرة، ولم تكن ردة فعله كهذه أبداً، لكنه رأى أحد القادة يستشهد أمام عينيه، لقد كان يعامله بمحبة وأخوة، ولم يتخيل يوماً أنه سيستشهد أمام عينيه على جبهة مختلفة، هي جبهة الإغاثة والعمل الإنساني.

كانت صدمة لنا جميعاً، جعلتنا نراجع أوراق حياتنا ونحن نفكر كم يتوجب علينا من العمل حتى نرزق خاتمة طيبة كهذه!

كنت أتحامل مع الشباب لنواري جسده أو ما تبقى منه التراب مع بقية الشباب الذين استشهدوا وهم يحاولون إيصال لقمة طعام لتنقذ أرواحاً أنهكها الجوع والحصار..

غابت فرحة وصول الطعام على قلّته برحيل الشهداء ومن بينهم قائد عظيم لن يعوض، ولن يسد مكانه أحد، وكانت في كل لقمة غصة الألم، فعلاء وسواه

غادرونا جائعين فيما كانوا يحاولون إطعامنا..

تباً لحياة تزهق فيها نفوس الأبرياء لأجل لقمة طعام!

(40)

خسرناهم
هذه حقيقة
وحقيقة أخرى بأنهم لم يخسروا.

راسي

٢٠١٤/٤/٦

بعد إفراغ حمص القديمة من الأهالي، ودخول القوافل التي حملت الشحيح من الطعام، كان الشعور بالموت يتفاقم عند الجميع، تارة نستسلم لفكرته، وكأنه أمرٌ واقع وانتهى، وتارة أخرى نتذكر أن في الروح بقية من حياة، فنعود، وننتفض مجدداً معلنين أننا سنتابع مهما كلف ذلك من ثمن..

لقد كنا ضمن إمكانياتنا المتاحة نخوض معركة في الشهر، على ضعفنا وتعبنا وشح الطعام والذخيرة والمقاتلين، وتلاشي المواد الطبية، وحالة اليأس التي حاصرتنا أكثر من الجوع من الخارج والداخل، والتي شكلت ضغطاً نفسياً رهيباً، وأوقعت القادة في حيرة، وهم مطالبون بحل لمسألة تزداد تعقيداً كل يوم، وقد أشاعت فئات أنها تود الانسحاب إن لم يتم إيجاد مخرج سريع لهذه الأزمة، وفعلاً بدأت ترتيبات الانسحاب على أن يقوم ثوار الوعر بالسيطرة على منطقة

قريبة، ونتابع نحن في حمص القديمة القتال باتجاهها ثم نقوم بالانسحاب، وبدأت تُفرغ المنازل من المقاتلين في حمص القديمة ويتمركز الثوار في جورة الشياح، غير أن الجواب قد وصل من الوعر أن لا إمكانية في السيطرة على تلك المنطقة، وكل ما يمكنهم هو التغطية فقط في لحظات الانسحاب، في تلك اللحظات أصيب الشباب بإحباط كبير جداً، وبدأ البحث عن خيارات جديدة. فكان التخطيط لعملية السيتي سنتر، والتي كانت مطروحة ضمن الخيارات من قبل، والآن باتت لها الأولوية.

خطة العملية تقتضي تحرير جورة الشياح كاملة، ولا خيار للتراجع فيها، ولا ميزات فيها سوى الحصول على بعض الطعام كي نستطيع القيام بعملية لاحقة. جُهّزت سيارة مفخخة، والهدف تفجيرها في أحد الحواجز والانطلاق بعدها للتحرير،

كان غياث في تلك الأيام مجهداً يساعد الشباب في إعدادها، وكانت المشكلة الأكبر في إمكانية تأمين مادة تي إن تي المتفجرة، حاولت مع الشباب البحث والطلب من عدة كتائب، لكن ظل هناك من يرفض المساعدة.

قبل العملية بليلة واحدة، سقطت أسطوانة ضخمة على جورة الشياح، لكنها لم تنفجر، واستطاع الشباب تفكيكها وأخذ المواد المتفجرة منها والاستفادة في ذلك بتفخيخ السيارة، فكانت أجمل هدايا السّماء بالنسبة إلينا وإن جاءت على شكل صاروخ أو أسطوانة متفجرة، لم تسقط كما هي مصادفة دون أن تنفجر، كان دعوة للمواصلة فهمناها وفهمها فقط كل الذين عانوا في إيجاد ما يتقدم بنا خطوة للأمام.

***

كانت الحاجة ماسّة لأربعين انغماسي يخوضون المعركة وأرواحهم على أكفّهم، وكنت أراقب وجه رامي الذي يذبل من التعب، وهو يبحث ويسأل ويشاور، ثم يختفي ليخطط ويعمل ويفكر، لم يكن يغفو في الليل إلا ساعة أو ساعتين، ثم يصحو وكأنه كتلة من الحيوية والنشاط، ويذهب ليتابع مهمته، كانت قضيته أن يصل بالشباب إلى مخرج، وكأنهم جميعاً مسؤوليته وحده، مع أنه كان واحداً منهم، إلا أنه كان يحمّل نفسه عبء الخلاص، فهو لن يحتمل أن يُفجع بهم، كما لن يحتمل فكرة أن يُذلّوا بأي شكل في اعتقال، أو أن توجه إليهم كلمة إهانة واحدة. أحد القادة بادر بنفسه وقدمها مع عشرين من رجاله، دون أن يسأل حتى عن تفاصيل العملية.

اجتمع معهم ليلتها، وقدم لهم العشاء ببقايا طعام كانت هي كل ما يملكه، وقد خبأه تحسباً لأيام صعبة.

اجتمعوا حوله جميعاً في الثانية ليلاً، وبعد أن اقتربوا منه، قال لهم:

لا أعرف إلى أين العملية موجهة، ولا ما هي الخطة، لكن ما أعرفه أنه درب يقود للموت، فهل أنتم مستعدون؟!

فأجابوه جميعاً بالإيجاب، فقال لهم:

ستنطلقون وأنا معكم، لن أكون قائدكم هذه المرة، بل سأكون عنصراً فقط لا غير، يجري علي ما يجري عليكم.

قال أحدهم وقد وجد الفكرة صعبة، وقد خشي عليه:

أرى أن تظل هنا فالجميع بحاجة إليك، ونحن سنخرج متوكلين على الله، فإما

شهادة أو نصر..

لكنه أجاب مصرّاً على قراره..

لقد حسمت أمري وانتهى..

قام قائد آخر بتجهيز الطريق وتأمينه لمرور السيارات بعد السيارة المفخخة، واجتمع الشباب جميعهم عند السيارات، وكانت المعنويات جد عالية، ولما عرف بقية مجموعة عبد القادر جمعة بقصة الانغماسيين العشرين، جمعوا بعضهم بعضاً، وكان عددهم كبقيّة عشرين آخرين، وذهبوا إلى مكان السيارة المفخخة يريدون أن يشاركوا أيضاً مهما كلف الأمر. لكن قائدهم رفض، وقال إن الحاجة الآن إلى عشرين فقط، وسيكون لهم دور في عملية أخرى، لكنهم رفضوا، وبدأ بعضهم بالبكاء، يريدون أن يكسبوا ذلك الأجر، وينالوا ذلك الشرف.. واجتمع الناس لوداعهم، وكان محمود حاضراً للتصوير، وكنت أعدّ نفسي لأتبعه، في تمام الخامسة والنصف فجراً.

وفجأة، سُمِعَ دوي انفجار ضخم، ظننت العملية قد بدأت، انتظرت دقائق كي أسمع أصوات الاشتباكات بداية للتحرير، لكنني لم أسمع شيئاً.

انقبض قلبي، وخشيت أن تكون السيارة انفجرت ضمن منطقتنا.

ذهبت إلى المشفى لأتفقد الوضع، رأيت الطبيب حمزة، وسألته عن الأمر، فأخبرني أن السيارة قد انفجرت على أرضنا، لكن لم يصل إليه جرحى.

قلت في نفسي، لعلها انفجرت وحدها دون أي خسائر، وتابعت السير باتجاه الموقع، وكنت أرى الناس عائدين وعيونهم ساهمة، وحالة من الصدمة والذهول تعتريهم، أُسقط في يدي، ولم أجرؤ على سؤال أحد عما حدث.

رأيت شاباً أعرفه، كان واجماً، سألته بلهفة وفزع، فقال:

استشهد الجميع!!..

سألته مَن الجميع؟

قال:

الجميع أي الجميع.. القادة والشباب..

فكرت حينها أترى قد أذن الله بنهايتنا جميعاً بعد أن أخذ الصالحين منا؟!!

لم أستطع استجماع أفكاري، ولم أعرف ما الذي علي فعله، حتى البكاء كان في تلك اللحظات عزيزاً.

عدت بخطوات متثاقلة إلى الحرس، كانت النقاط كلها خالية من الشباب، جلست وحيداً أنتظر خبراً ما، أي خبر.

تذكرت محمود، وترددت قليلاً في الاتصال به، ثم تجرأت على ذلك.

رنين هاتفه جعلني أتفاءل خيراً، وبعد عدة رنات، سمعت صوته، وعلى الرغم من أنه كان يبكي إلا أنه بعث في داخلي الروح من جديد. فقد جعلني أدرك أن هناك أشخاص على قيد الحياة.

سألته سريعاً عن القادة، فقال لي: إنهم نجوا من الموت بأعجوبة، ما عدا القائد الذي تطوع بنفسه مع نصف مجموعته للتنفيذ تحت أي ظرف.

وبدأ يعد لي أسماء الشهداء، ثم وكأنه تذكر أمراً فغصّ بصمت ثم أخذ ينتحب، وأنا ألح عليه وأستحلفه سائلاً إياه ألا يخفي عني شيئاً، فقال بصوت واجم متقطع: وحذيفة.. استشهد أيضاً.. تقبله الله.. وألحقنا به..

شعرت لحظتها بنهاية العالم، لم أستطع أن أبصر أمامي للحظات، كدت أتهاوى،

لكنني تداركت نفسي ووقفت، تذكرت واجب الوداع، وكلمات أود أن أقولها له قد خبأتها عنه طويلاً.. تماسكت، وقلت له بهدوء:

أنا آتٍ لوداعهم..

قال لي:

لا تأتِ، لن تحتمل المشهد.

أغلقت هاتفي المحمول، وبدأت أمشي باتجاههم، لا ألوي على شيء..

وصلت إلى مكان الحادثة، واستقبلتني الأشلاء..

رأيتهم يستخرجون الجثث قطعاً، ومعهم غياث وقد لفّ يده بخرقة وبدا أنها ما تزال تنزف، ووقف منهمكاً يقول:

هذه يد فلان، وهذه قدم فلان، وهذا رأس فلان.. وكلما تجمعت بعض الجثث نقلوها بعربات الفول الخشبية إلى المشفى، فلا توجد حتى سيارة واحدة لتحملهم إلى هناك..

وفي المشفى كانوا يأخذون الجثث، فيصلّوا على الشهداء، ويأخذونهم إلى الدفن مباشرة.

قدم أخ القائد الذي استشهد مع مجموعته، ووقف ليقول كلمة حق موشاة بالأسى:

يشهد الله أن جميع من استشهدوا هم إخوتي، وها نحن اليوم بحضرة أخي الحبيب، وقد طلب الشهادة منذ زمن..

أخي الذي حسم أمره ألا يترك حمص أبداً..

أخي الذي كان قد خبأ القليل من الطعام ليساعده على البقاء حتى وإن خرج

كل الناس من العديّة.

أخي الذي كان يخطط في حال بقائه أن يعمل على تشكيل خلايا نائمة تؤرق النظام وتكون شوكة في حلقه..

أخي الذي تحدثوا عنه بالسوء واتهموه ظلماً، هاهو أمامكم أشلاء، وأنا أعرف ضمنياً أنه إن كان على قيد الحياة لأخبركم أنه قد سامح كل من ظلمه، وأرجوكم.. كفانا تخويناً..

أما حذيفة فحاولنا التعرف عليه ودفنه، وكنت أشعر وكأنما بقايا روحي توارت تحت التراب، وسقيته بدمعتين، وذهبت لأودع قبور بقية الشهداء، وبينهم القائد الملهم، والعامل بصمت، والمقاتل القوي، وأنا أحاول فهم فلسفة الرحيل، كيف لهؤلاء أن يكونوا قربنا، ونفقدهم فجأة! وكيف للحياة أن تستمر بعد رحيلهم؟ وما طعم الحياة في غيابهم؟! قال لي محمود إني لم أعد أبتسم منذ استشهد حذيفة، فاجأتني ملاحظته، فقد كنت نسيت نفسي، فكيف أتذكر أن أبتسم؟!

حذيفة كان مصدر الأمان لي شخصياً، لغياث ونضال، وحتى للطبيب حمزة، ولكثير من الشباب الذين أحبوه لأفعاله، وحكمته وهمته، وحاولوا الاقتداء به. كانوا يرون فيه الإنسان الشجاع العملي صاحب المبادرة، والأخ الذي يقف إلى جوارهم فيوجّههم ويساعدهم على تصويب أخطائهم وتداركها، ويثبتهم في لحظات حزن أو عندما تلوح بادرة يأس.

لم أفكر يوماً في رثائه، ولا كنت أعلم ما الرثاء، كل ما شعرت به في غياب حذيفة أن قطعة من القلب غادرت وتركت مكانها خالياً لا يمكن لأحد أن يملأه أبداً.

كان يقول لي باستمرار:

- إن كل إنسان على هذه الأرض كنز لا يُقدّر بثمن، ولذلك فإننا ننكسر عندما يستشهدون أو يرحلون، كسراً يصعب إصلاحه، فالشهيد لا يفعل إلا أن يشوقنا للجنة أكثر، والمسافر لن يعود بأي حال، على الأقل حتى نسقط هذا النظام، ولذلك فلنتشبث ببعضنا كثيراً، ولنحاول أن نتعلم من بعضنا أكثر، فإذا فقدنا أحدهم لأي سبب، لم نفقد علمه أو مهاراته.

وكان يقول كلما بُحت له بمخاوفي حول طول أمد الحصار:

إن درب جهادنا طويل، ومليء بالعقبات والامتحانات، وما هذا الحصار إلا أحدها، وهو لا شك سينقضي، وما علينا إلا أن نعتبره دورة تدريبية على ما هو أشد.

وكنت أفقده في أيام فأراه يتأمل صور أطفاله ويمسح دمعاً، فكأنه كان يخشى ألا يلتقي بهم، وألا يخرج أبداً من الأرض التي أحبته وأحبها، حتى احتضنته في قلبها.

في تلك اللحظات العصيبة، وبينما الشهداء الثلاثين لم يُدفنوا بعد، خرج قرابة أربعين شاباً من الحصار، قاموا بتسويات مع النظام، وكانت مساحة اليأس والألم في النفوس تتسع.

(41)

لست حزيناً على الذين استشهدوا
فهم بين يدي رحمن رحيم
إنما حزني على من قُتل الحلم في قلوبهم
فلقوا حتفهم وهم أحياء!

غياث

خلف جدارٍ مخفي، في زقاق قديم، وجدته جالساً على الأرض، وقد أسند رأسه على ركبتيه ليخفي دمعه..

اقتربت منه وجلست قربه، ورفعت رأسه بيديّ ليراني..

نظر إليّ دامعاً فابتسمت مشفقاً، وأنا أرى الإباء لم يغادره حتى في حزنه، وهمست في أذنه:

الحزن لا يليق بك يا صديقي.. دعهم فليرحلوا، لعلهم ببساطة تعبوا من البقاء، تعبوا من انتظار الفَرَج، لعلهم يئسوا فظنوا أنه لن يأتِ أبداً..

لم يحتمل رامي فكرة رحيلهم، لم يحتمل أن تخلُ السّاحات والشوارع من الجميع فجأة، ونصفهم بات تحت الأرض، والنصف الآخر قد قرر مغادرة هذه الأرض، ليغدو الباقون فيها استثناء عن الرّحيل الذي بات يفرض نفسه في عقول الناس

على أنه القاعدة الآن..

تحدث أخيراً وكأنه كان ينتظر فرصة لبوح كتمه طويلاً ولم يحدث به أحداً..

لم يكن هذا مشهد الرحيل الأول الذي يعذبني يا غياث، فقد شاهدت أهل المدينة كلهم يغادرون أمام عينيّ واحداً تلو الآخر، وكأنما أصابتهم لوثة السفر وحمّى الرحيل..

يغادرون لتضمحلّ الحياة هنا، ولا يزدهر إلا سوق الحقائب!!

تُعار الحقائب أحياناً وتُستعار تحت سقف التراحم والإنسانية!!

وحقائب الرحيل كثيرة يا غياث، أكثر من البشر أنفسهم، ولكل حقيبة ذاكرة كذاكرة البشر تحكي حكايات مختلفة، منها ما يلائم المطارات، ومنها ما يلائم الحافلات، ومنها خفيفة لركوب البحر، وثقيلة للبقاء في المخيمات..

يحملون الحقائب ويرحلون، فترخص لحظات الوداع، وتغدو الدموع بلا قيمة، ومؤقتاً يصمت كل شيء..

لحظات تعبر وكأنها دهر، وجوهٌ وكأنها منحوتة من رخام، مشاعرٌ تضاهيها سكوناً، تشحب الألوان، يبدو كل شيء رمادياً، البيوت والأشجار والأرصفة وأعشابها، والفراشات والندى، حتى الزهور.. كل شيء يغدو رمادياً.. حتى الهواء الذي كان أكثر ما يميزها.. تلك المدينة، يغدو كعاصفة من غبار..

لا أصوات هنا، سوى صوت الرحيل، ولا ذكريات تُحمل، فالذكريات لها وزن عند الحدود، ولها أهمية عند حواجز التفتيش العسكرية، والذكريات لها قيمة أغلى وأطهر من أن تمسّها يدٌ آثمة تقلّبها كيف شاءت وتعبث بها، وهي لا تدري أنها تعبث بقلوب الرّاحلين..

وكما عبث لصوص النظام بأمتعتنا وذكرياتنا في سوق السّنّة، هم يتربصون بنا الآن كي نبقى وحدنا بلا سند، فنؤكل كما أُكل الثّور الأبيض، وتُسرق الأرض علناً، وتعود تحت قيدهم عقوداً..

وأحاول طمأنة رامي بجعبة من المعنويات فارغة، وأجد نفسي مثقلاً مثله بهموم كثيرة، وأتحسس القيد يضيق علينا جميعاً في هذا الحصار، وأفكّر بسؤال كثيراً ما راودني وأنا أشهد هذا اللون من ألوان العذاب..

لماذا رحل حذيفة؟!! لماذا يرحل المخلصون ونبقى نحن؟ وما قيمة بقائنا من بعدهم؟ وكيف لنا أن نكمل وأعدادنا تتناقص بين شهيد أو راحل، وإلى أين المصير؟

فأجد الإجابات تتلاشى، وأحاول التقاط إجابة شافية من هنا وهناك، فأجد من يعد بوصول إمداد من الرجال والعتاد، وأجدُ من يعد باتفاق مع النظام مقابل تنازل ما، وأجد نفسي ومن أعرف تائهين بين الإجابات المتضاربة، وأخشى من فكرة أن نفقد بعضنا في خلاف يقدّم هزيمتنا هدية سهلة للنظام، وأفكر، وأخشى من التفكير فألتزم صمتاً بمذاق مرّ!

تعاهدت ورامي بعد كل خيبة أمل أن نعود فننشر الأمل في القلوب من جديد، وكنا نتخذ في سبيل هدفنا هذا طرقاً شتى، لنمحو صورة الألم المترسخة في النفوس، فكنا نزرع الخضار على سطح المنزل الذي نقطنه، لنرسخ قيمة الارتباط بالأرض وحب البقاء فيها. ونتكبد ومن معنا من الشباب عناء نقل التراب من مسافات بعيدة، فنرفعه للطابق الثالث عبر رافعات يدوية، لنزرع الأسطح، وننشر الأمل، وقد كانت هذه الأعمال تستفز محمود وكل الشباب اليائسين،

الحازمين أمرهم بالخروج، فيسمعونه رامي كلاماً قاسياً، وينعتونه بالحالم الخارج عن أطر واقعه المثقل بالألم، ولم يكن يأبه بهم. فيواصل العمل دون كلل أو ملل، وهو على اجتهاده فلم يكن يحصد أملاً وحسب وسط حالة الجوع التي يعاني منها الجميع، فقد كانت مزرعته الصغيرة على السطح تعود عليه بما يكفي كل شخص معه بمقدار كيلو ونصف الكيلو من الخضار صيفاً وشتاءً..

وفي عز أيام الحصار والاستنفار، كان يعمد إلى تحويل نوبات الحراسة إلى أشبه ما يكون بالنزهة.. فيكنس الأرض ويرشها بالماء، ويرتب أصص النباتات بشكل منسّق، ويضع طاولة وكراسي بحرية جميلة، فيبدو المكان وكأنه خارج عن نطاق الحصار شكلاً ومضموناً.

وكنت أراه يجدّ في مخاطبة الشباب المتعب واليائس والمتردد إلى مقرّاتهم، ومحادثتهم وتثبيتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فأساعده.. وهدفه في ذلك كله أن يستخرج الأجمل المكنون في نفس كل شخص يحاوره، لا يفرّق بين من تظهر عليه علامات التدين والالتزام، وبين من كان يصنّف من فئة الحشاشين أو الزعران، وكم كنت أعجب لحاله هذا فأسأله كيف يستطيع تحطيم حواجز التمييز التي رسّخت فجوة بين الجميع، فيجيبني باسماً..

إن كل شخص منا في داخله جوهرة ثمينة، غير أنه لسوء تربية أو ظروف قاهرة يُظهر لنا الأسوأ عن غير إرادة أو قصد، ولو حادثته وراجعته لوجدته يحمل قلب طفل.

وفي الحقيقة فقد كانت لرامي طريقته الخاصّة التي يخاطب فيها الأرواح، حيث لا مكان للتصنع والمكابرة، فيحادث اليائس والصابر، القوي والضعيف.

كانت علاقة الجميع كمن يودّع رفاقه قبل الموت، ومع ذلك، فهناك شعور كبير بالتفاؤل بالله يغمر القلوب بالسكينة رغم الشّدّة والأسى.

غير أن إصابته المباغتة على إحدى الجبهات أصابت عقولنا جميعاً بالشلل، فلم نعتد إلا على رؤيته يتنقل من مكان لآخر، يساعد هذا ويقوم على حاجة ذاك.

امتلأت حجرة المشفى بالمحبين القلقين على رامي، وخرجوا يحملون غصّة مضاعفة، حين صرّح له الطبيب أن لابد من بتر قدمه اليمنى.

تلقى هو الخبر بصبر وثبات، وهمستُ في أذنه..

لقد سبقتك إلى الجنّة.

وكنت أسمعه في الليالي الحالكة ينتحب، فأسأله إن كان يتألم، فيقول لي:

إنه ألم الروح، فأنا لم أعتد القعود، وقد اشتقت لنوبات الحرس وقتال الأعداء، اشتقت لخطوات أسيرها في سبيل الله، أنى لي أن أعود لعالمي الذي أحببت بعد اليوم؟

مشاهدة شاب مثل رامي في تلك الحالة يجعل من يراه يدرك كم هو موجع أن تفقد تلك اللذة التي كانت تعينك على الحياة، لذة العمل في سبيل الله.

(42)

وأقولها كما قلتها يوماً يا جدَّنا..
فلا نامت أعين الجبناء..

راسي

شباب كثر من بيننا آمنوا بفك الحصار، وبيوم نصر مؤزر، وبأنها ستفرج.
لم يتخيل أحد منا أننا نحن من سنخرج إلا بهجمة قوية ومباغتة للجيش نقتل منهم، ويُقتل نصفنا، وكنت أفكر في مصيري ومصير بقية الجرحى وأتألم لحالهم وأحاول أن أجد حلولاً.
كنت أنجل من أنيني، وأشعر أنه يزيد من ألم الرفاق القلقين على حالي فأحاول كتمانه ما أمكن، وعبثاً كانوا يؤملونني بالخروج والتداوي في أفضل مشفى في الخارج، ويطالبونني بالتماسك، غير أن كلامهم كان يزيد من الغصة في قلبي، فأطالبهم بالصمت، وحدها بعض الحروف من خارج الحصار كانت تسكن وجعي وترفع همتي، ورسائل الأطفال الذين صقلت عقولهم وأرواحهم معلمات رائعات كانت تشد من أزري.
تمنيت لو كانت ضحى قربي، لكنني رضيت بقدري، وكم كنت أجد من الغرابة ما

تصنعه سواها، ممن آثرن متابعة الطريق إلى نهايته، مثل مؤمنة وصديقتها هدى، لماذا لم تفعل مثلهن، وكنت أغص بوجع جديد فأداري حزني.

في تلك اللحظات الحرجة أخذ النظام يكثف هجماته على جبهاتنا، فوجدت إحدى الكتائب ألا خيار إلا في المواجهة، وبأن استشهاد شخص واحد في سبيل إنقاذ ألفي مقاتل لهو أمر يستحق المجازفة، فقامت بإعداد شاب استشهادي، وقامت بتدريبه بشكل يومي على قيادة السيارة في أوقات الصباح الباكر وحين تخلو الشوارع من المارة، وجُهّز عشرة من الانغماسيين خلفه، وبدأ العمل الجاد، وكانت الهمم عالية، وفي ساعة الصفر ولحظة الانطلاق، كانت مشيئة الله ألا تتحرك تلك السيارة بسبب خلل مفاجئ، وعندما أصلحوا العطل الأول ظهر عطل آخر، وانتشر خبر السيارة ووصل إلى لجيش، فبدأت غارات الطيران فوق رؤوسنا، وظلت النصرة مصرّة على العملية باتجاه جب الجندلي. وتُكُتّمَ عن الوجهة بشكل تام، وأُلغيت العملية يومئذ، لتنطلق السيارة في اليوم التالي، وتحقق نجاحاً كبيراً، فتنفجر في مقر قيادة الجيش في جب الجندلي، ويتوغل الانغماسيون في ثلاثة محاور، ويحرروا كتلة النفق، وتدخل بعدها ثلاث مجموعات متتالية تتابع التحرير بالكامل.

أحرزت تلك المجموعات نصراً متميزاً، وبدأ الشباب يتوافدون لأرض المعركة ليساهموا فيها، تلك المعركة التي أطلقوا عليها اسم « ويشفِ صدور قوم مؤمنين» التي كانت حقاً اسماً على مسمى. فقد نالوا غنائم من الطعام وبعض الذخيرة وانسحبوا، وبدأ الجميع يترقب حصول عمليات جديدة. وكانت ورقة ضغط في المفاوضات التي بدأت تأخذ طابع الجدية من جميع الأطراف.

كنت أتقصى الأخبار من غياث ومن محمود، فأخبراني أن آخر الحلول وأكثرها مراراً ووجعاً أن نجلس مع من قاتلونا وحاصرونا على طاولة المفاوضات، كانت الرؤية العامة من قبل النظام أن تكون اتفاقية استلام وتسليم، تنص بخروج المقاتلين عزلاً من السلاح، وأن يتوجهوا إلى الريف دون ضمانات.

في ذات الوقت علم غياث أن إحدى الكتائب المهمة في الحصار وقائدها يتواصلون مع الجبهة الإسلامية رغبة في تحصيل أوراق ضغط على النظام. وخرج الوفد المفاوض لينوب عن أهل الحصار، لكنه اكتشف أن من يتسلم دفة الحديث ويفاوض فعلياً هو المبعوث الإيراني ممثلاً عن دولته وكأنه الحاكم الآمر الناهي على هذه البلاد.

قلت لهم حينها:

انتهت مرحلة عض الأصابع، وما أوهننا إلا الجوع والحصار، لولاه لجعلنا النظام يركع، وما احتجنا للجلوس معه على طاولة المفاوضات.

سبعمائة يوم من الحصار والنظام لم يستطع التوغل أكثر مما فعل، ولو أراد إبادتنا لما توانى، لكن أبطالاً من بيننا واجهوه، ودحروا هجماته، وأوقفوه مراراً عند حدّه.

تلك الفترة الطويلة جعلت ضعفنا باد للعيان، ومع ذلك كانت هيبتنا في قلب النظام كبيرة، ولولاها ما قبل أن نجلس الند للند على طاولة مفاوضات واحدة. بدا النظام جاداً في وقف إطلاق النار المتفق عليه، والتزمنا بذلك أيضاً، فقد أجمع الجميع أخيراً على فكرة الخروج، مقابل الحفاظ على حياة شباب هم قلب المدينة ونبضها.

الوفد المفاوض من حمص القديمة كان ذكياً، وقوياً كفاية، ليرصد ما يحدث، ويجيب بما يلزم، ويرفع سقف المطالب إلى أقصى حد ممكن لمصلحتنا.

كان مفاوضو حمص القديمة ثلاثة، نحالاً ضعافاً، خفيفي الوزن، لكنهم يتكلمون بصوت عال ويعلنون مطالبهم واضحة جلية حتى تم توقيع الاتفاق وبدأت ترتيبات الخروج.

لم يكن أحد منا يفكر أن أبعاد الامتداد الإيراني الشيعي قد وصلت إلى هذا الحد من سيطرة إيران وتهميش دور النظام، ومع ذلك أخذت المفاوضات مجراها، وعلامة جدية من الطرفين بدأت الطرفان بوقف كامل لإطلاق النار و العمليات العسكرية، و استمرت المفاوضات لمدرة ثلاثة أيام متتالية بدأت بعدها كان العمل على تنفيذ للاتفاق الكامل المتضمن خروج الثوار المجاهدين من حمص المحاصرة بسلاحهم الفردي ، إضافة إلى اخراج نصف عدد الرشاشات الآلية ، كما تم تحصيل عدة ضمانات للخروج الآمن منها (وجود أعضاء لجنة المصالحة الوطنية في كل باص ينقل الأخوة نحو الريف) و بالمقابل حصل النظام على المنطقة المحاصرة و التي كانت محررة و بأيدينا ، كما أطلق سراح الأسرى الذين كانوا لدى الجبهة الإسلامية، إضافة إلى إدخال المساعدات الإنسانية إلى قريتي نبل و الزهراء .

قبل الخروج بأيام، وعندما تقرر خيار الرحيل، ناديت غياث عند الثالثة فجراً، وقلت له وقد استبد بي الألم:

اسمعني يا غياث..

كم تمنيت لو أنني أستطيع السير الآن في الحارات، لأجمع بقايا الذكريات، لأخفيت

آثار القبور كي لا يدنسوها، ولاعتذرت من الشهداء على تقصيري. أنا لن أطيق مواجهتهم بتلك الحقيقة، أنا لن أحتمل فكرة قيام أحد من قبره يوماً ليحاسبني ماذا صنعتَ في حمص بعد رحيلي.

قل للشباب أن يغلقوا البيوت التي فتحناها مضطرين، ويُحكموا الإغلاق، لعل أهلها يعودون إليها قبل أن تغدو مشاعاً للمجرمين، يدنسونها بأقدامهم، ويلتقطون الصور ضاحكين أمام ما تبقى منها، ويخبروا العالم أنهم دخلوها فاتحين.

حاولوا أن تجمعوا ذكرياتكم من الطرقات، والأنفاق وقرب المتاريس، ومن الخنادق، والبيوت، وعلى كل جدار خططنا عليه حروف الثورة، وحب الأرض، وآلام الوداع..

خذوا من متاعنا ونحن نغادر، بقدر ما حملنا معنا حين دخلنا إلى هنا، بمقدار ما يحمله الأبطال عابرو السبيل الذين إن دخلوا أرضاً، يدخلونها وهم يوقنون أنهم لا يدخلونها إلا كمهمة إنقاذ، ولن يبرحوها إلا شهداء أو منتصرين.

ودِّعوا كل الحجارة التي ألفتنا وألفناها، وتعلمت منا وعلّمناها، ودّعوا المآذن التي انحنت عطفاً على أحوالنا، والمساجد التي صمدت لتحمينا ونحميها.

خذوا حفنة من تراب، بعد أن تمرغوا جباهكم بسجدة..

لا تقولوا شيئاً، فالصمت منصف، ولا تلقوا وعوداً فقد تعلمنا أن قيمة الوعود في تحقيقها .

ارحلوا بصمت ولكن أعزَّة، غادروها ولكن برؤوس مرفوعة، وإذا مررتم قرب الشامتين الذين قد أخرجوكم، اكتفوا بنظرة، هم سيفهمون تلك النظرة أكثر من أي أحد آخر، فذكرياتنا هنا معهم حديثة. هم الذين ما كانوا ليجرؤوا على

الوقوف أمامنا، ولا التقدم خطوة، وأنفاسنا فيها..

اطلق غياث زفرة ولم يجبني، فقد كان ومن معه بحاجة لمن يعزيهم..

وبتاريخ ٢٠١٤/٥/٩م

في الباص الأخضر الذي شقّ طريقه بسلام خارجاً من المدينة، وفي جو يكسوه الصمت الأليم، أخرج غياث هاتفه المحمول، وسجل ملاحظة بعينين دامعتين:

نرحل..

بعد صمود سبعمائة يوم من الحصار، أمام أكثر من ٦٨ محاولة اقتحام، وأكثر من ٩٨ غارة طيران حربي، بعد أن واجهنا الضرب بغاز السارين السام، وبعد حصار بالدبابات والطائرات والمدافع والتجويع.

يذرف محمود دمعة، ويقول وعيناه معلقتان على النافذة:

انظر يا رامي.. عاصمة الضحك تنشج بحرقة، ذبلت ابتسامتها ولا أظنها تعود..

ويتابع غياث تسجيل ملاحظاته:

رغم ذلك كله، كنا ١٩٠٠ شاباً، خرجنا برأس مرفوع أمامهم، أحياء سالمين، بسلاحنا وعتادنا كي تقاتلهم مجدداً، وما استطاعوا أن يعترضوا، فخرجنا كيداً لهم وقهراً.

وسمعت صوت الطبيب حمزة يقول من الخلف بصوت متهدج:

عندما دخلت إلى هنا لم أتخيل أنني سأخرج، أما وقد فعلت فسأعتبرها فرصة حياة جديدة لأتابع مهمتي في التخفيف من معاناة الناس، لا شيء سيوقفني عن رسالتي بإذن الله.

وألوذ بالصمت، لعل صمتي يحتوي وجعي..

ويصرخ محمود بي:

يا رامي، يا أخي قل شيئاً أرجوك.

ولم أكن أدري ما أقول، كنت أتمنى لو حظيت بسجدة على ترابها، لأقبلها قبلة الوداع، شعرت بأنني خسرت كل شيء، كل حلم نسجته، كل فكرة رعيها، كل هدف خططت لأجله، كل لحظة جميلة عشتها، شعرت بالهزيمة تطعنني، وتملأ قلبي بالندوب، ومع ذلك لم أكن يائساً من متابعتنا الطريق، كنت أرى الأفق أمامي فاتحاً ذراعيه ليحتويني، ليصقلني، ليعلمني ويكسبني كثيراً من الخبرة والمعرفة والفهم، فهذا الوطن يستحق منا أكثر مما قدمناه بكثير، فقلت لصديقي الباحث عن روح تسانده:

لم نترك العديّة إلا لنعود إليها فاتحين.

كنت واثقاً أن الجميع يذرف دمعه بصمت مكابر، وإن بدأ بعضنا ينشدون بإباء حين غادرنا الطريق الرئيسية خارجين من حمص إلى أجل غير مسمى باتجاه الريف الشمالي.

حين دخلنا المناطق المحررة فيه كنا نجد الأهالي قد وقفوا على أطراف الطريق ملوحين ببسمات دافئة، ومعهم أكياس فيها طعام قدموها لنا، ورغم حاجتنا الشديدة للطعام إلا أن كثيرين رفضوا تناوله واحتفظوا به زمناً دون أن يفتحوه، وكان علي أخذ أول سيارة والسفر مباشرة إلى تركيا حيث تنتظرني أكثر من عملية، وقد وعدت بزراعة قدم اصطناعية!

ودعتهم مع بعض الجرحى ومضينا، وقد كان بإمكاني يومها أن أرى كيف يكون الحزن عزيزاً..

(43)

تبقى هي السنن
لا تتغير
لا تحابي ولا تجامل أحداً.

مؤمنة

عادت هدى من جولتها في حمص القديمة بعد أن استولى عليها النظام وسمح للناس بالتجوال فيها بعد أن عزز جولها حواجزه العسكرية، عادت بوجه كئيب، وكأنها حملت كل هموم الدنيا على كاهلها. كنت مدركة أن هدى ستعاني من المشهد، فمن رأى ليس كمن سمع.

حاولت سؤالها لعلها تزيح عن قلبها بعض الألم أو تشاركها فيه.

فأجابت وهي تحاول التماسك بأنها لم تجد سوى الغصة والدمار.

مشفى الأمل عند شارع الكورنيش الذي اختفت ملامحه، وتحول إلى ركام، كم آوى إليه من جرحى، وكم غُسلت أرضه بدماء الشهداء، خطواتها عبرت متثاقلة جورة الشياح، وتلك الأبنية التي كانت تتلاصق ببعضها في مشهد يوحي بالمحبة والتآزر قد هوت في لحظةٍ معاً، راسمة مشهداً بطولياً لرحيل جماعي..

تعثرت أكثر من مرّة بأنفاق الثوار، سقطت روحها في عتمتها ووحشتها، كادت

أسمع حنينها لهم، وأنينها على فراقهم.

كانت تتطلع إلى بقايا الجدران، كتاباتهم عن التفاؤل والنصر ورفع الهمة، توقيعهم بأسمائهم المستعارة التي حفظها جميع من انتظر خروجهم فكان يناديهم بها، قطفت زهرة كانت تتفتح بلونها الزاهي وسط الدمار، خافت عليها من عيون المجرمين، أرادتها أن تجف بين يديها، وكلما جفّت سقتها دمعاً.. ومآذن جامع خالد بن الوليد لاحت من بعيد، وكأنها تُشير عليها أن تقدّمي، ليست هذه نهاية رحلتك، كما أنها ليست نهاية رحلتهم، فلا تأسركِ الغربة والوحشة في طريقك، بل تابعيه إلى نهايته، وإن رحلتِ في الطريق فلا تخافي، سيكملونه يوماً ليحققوا غايته.

قالت متفائلة:

لقد ازداد يقيني يا مؤمنة.. حجارة حمص لا تخون.

لم أكن أعرف من أين امتلكت شجاعة السير فوق الدمار، فوق آثارهم، بل من أين أتتها جرأة العبور في شوارع خلت منهم!!

هذا خط ابن البلد «أبو حمزة»، وذاك خط «أبي عبيدة» الذي كان يملأ شوارع الغوطة والدبلان كتابة وحين كان يخطط لافتات المظاهرات.. عباراتهم تنطق، كانت تجد كل عبارة موجهة لنا نحن، لكل أهل العَديّة، بل لكل ثائر، كل حر...

لكل العابرين والمقيمين، للمسافرين والعائدين، لكل من عبر الجدار فأدرك أنه ينطق.

وصلت إلى جامع خالد، لم تنتبه أبداً إلى حاجز الجيش أمامها، لمحتهم بعد أن وصلت، كانوا نائمين، شعرت بالاشمئزاز من منظرهم، قالت في نفسها، لو كان

الشباب هنا لما غفت عيونكم!

تجاوزتهم وتقدمت أكثر، لتطالع القباب المقصوفة، والصحن المشوّه، والسور المهدّم.. والقبور...

ألقت التحية على سكان القبور، ودخلت الجامع منكسرة، وقد حاولت ألا تفعل.

ذرفت دمعتين قرب المنبر، ومثلها قرب قبره الذي عاثوا به فساداً، وزعزعوا أركانه، ولم يستطيعوا مع ذلك كله أن يوصلوا إلى صاحب القبر حقدهم..

عادت إلى المنبر، صلت قربه ركعتين، أكثرت من دعائها في السجود، تقلبت في تلك السجدة كل المواجع والأحزان، تذكرت سجدتهم يوم الرحيل.. طرق قلبها بعنف مشهدهم وهم راحلون.

لم تستطع أن تجد تفسيراً لما يحدث، كيف ضاعت حمص؟ أتراها هُزمت؟ أتراها انهزمت؟ أتراها لحظة رقاد عابرة وخلفها اليقظة آتية؟!

قالت متألمة:

كانت حكاية جميلة، لحلم جميل، لكن نهايته مفزعة!..

قلت لها وقد أشفقت عليها:

ولكن الواقع كان أكبر من الحلم، وإن كنا قد بذلنا نفوسنا كي نتناغم معه، إلا أنها دورة حياة متكاملة، الواقع يعلمنا، والأحداث تهذبنا وتؤدبنا، خسرنا الكثير لكننا لم نخسر كل شيء، اكتسبنا حكمة وتجربة، واقتربنا من الله أكثر وهو يعلمنا الصبر، انهزمنا برحيلهم وهم بذلوا كل ما بوسعهم، ونجاتهم بأنفسهم وبقائهم على إيمانهم بالله، ورغبتهم بالمواصلة دليل إخلاص، والمخلص يصل مهما تعثر أو تعب.

النصر في المعارك الآنية يا عزيزتي هدى لا يعني النصر النهائي، أمامنا عمل كثير يتطلب منا أن نتعلم من كل أخطائنا ونطور أنفسنا، ونعمل على جمع كلمتنا لتكون قضيتنا واحدة، فسنن الله لا تُحابي أحداً.

أما عبد الرحمن، فكان الشوق إليه يعصف بي ليطيرني في كل اتجاه.

لم أكن أدري، أكان شوقاً إليه؟ أم إلى الغاية التي جمعتني به، وجعلتني أصبر على فراقه، وأترقب عودته بكل الأمل؟!!

لكنه اتصل بي وأخبرني أننا سنلتقي، ولقاؤنا بات وشيكاً أكثر من أي وقت مضى.

(44)

وإن حلّقت فوقنا الطائرات..
وإن حلّقت بنا..
فالحلم سوف يبقى هنا.

مؤمنة

٢٠١٥/٤/٩م

حي الوعر:

بدأ الطيران الحربي يُحلّقُ على عُلوّ منخفض فوقَ العديّة، وتوجهت أنظار الناس في كافة أنحاء المدينة عدا حمص القديمة الخالية من أهلها صوب حي الوعر، وعيونهم تنطق بأشياء كثيرة لا تُحكى، تجمع بين خوف وقلق، نقمة وقهر، أسى وعجز، وهم يسمعون جنود النظام على الحواجز يشتمون الثوار الإرهابيين، مرفقة شتائمهم بأمنيات لهؤلاء بالهلاك، يتلفظون بعبارات الكفر أيضاً، وهم يمارسون مهمتهم اليومية في تفتيش الرائح والغادي وإشعار الجميع أنهم تحت السّيطرة، وتحت عيون السّلطة، فينتشر صمتٌ حزين في العيون المنكسرة، فيما تخفق القلوب بدعوات بالسلامة لكل المحاصرين هناك.

في أحد الشوارع الفرعية لحي الوعر تراكض الأطفال مذعورين من مدارسهم خوفاً من أن تسقط أسقفها فوق رؤوسهم.

كانت خمس أو ست فتيات في عمر الزهور يتقافزن بالحبل كنحلات رشيقات، وقربهن على الرصيف الآخر للشّارع جلس بعض الصبية في وضع القرفصاء، وقد أحنى أحدهم رأسه ممسكاً ببعض كرات الزجاج ليدقق التصويب، فيما جلس مقابله رفاقه مترقبين متأهبين وكأن على رؤوسهم الطير ليقيّموا أداءه، وبصبر كبير ينتظرون دورهم.

أما عند منعطف الطريق، حيث لا يمكن أن يرى السائر من يقف خلف الجدران، كان قد تجمع أطفال أصغر سنّاً، وقد جمعوا بعض أعواد الأخشاب المصقولة، وربطوها بطريقة فنّيّة، لتغدوا في شكلها أقرب للبندقية، وشكّلوا حاجزاً خاصاً ثورياً بامتياز يشرفون عليه، ولا يسمحون - فقط للأطفال الأصغر منهم أو في سنهم - بالعبور إلا بعد إخراج الهوية الوهمية، وقد يكون بينهم وبين أحد من رفاقهم ثأر قديم، فيعتقلونه لدقيقة، ويماشيهم، ثم يطلقون سراحه بأريحية، ويتابعون مهمتهم بجدّيّة.

لم يكونوا يأبهون عادة بأصوات الطيران بدايةً، فقد اعتادوا مرورها فوق سمائهم، لكن هذه المرة مختلفة، والطائرة تنخفض في مكانٍ قريب، تُلقي حمولتها، برميل متفجر على الأغلب، صوت سقوطه إعلان موت، ولحظات ما بعد سقوطه ولادة جديدة.

صرخ بهم أحد الرجال المسنين في الشارع على الأطفال كي يعودوا إلى منازلهم، واختفوا جميعاً من أمامه بلمح البصر. هم يعرفون تماماً متى يظهرون، وكيف

يختفون، فقد خَبروا النظام أكثر مما خبرهم، هم يعرفون كل شبرٍ في الحي وإن كانوا قد نزحوا إليه كالغرباء مهجّرين من أحيائهم في حمص القديمة، ليصبحوا جزءاً من الوعر، والطرق باتت تعرفهم، عشقوها وعشقتهم، شهدت لحظات قدومهم أو ولادتهم، وحملتهم وأوصلتهم إلى قبلتهم كأم حنون، تتابع دراستهم، تسمع نكاتهم وضحكاتهم، وتراتيلهم بآيات القرآن وهم عائدون كالأقمار من جلسات التفكر في القرآن الكريم وفي قلوبهم بدأ حب مختلف يخفق، وفي عقولهم تساؤلات تنمو، وفي عيونهم بريق ساحر، ورغبة وإصرار في بناء الحياة، شيء يشبه غرسة طيبة، وضعتها يد طيبة وسقتها، وسهرت عليها بانتظار أن تنمو وتثمر.

والشوارع مهما خَلَت وأقفرت لا تخلو منهم، تصغي للحظات غضبهم وبوحهم حين يولون فارّين من أمهاتهم الغاضبات من تأخرهم أو فرط طيشهم.

ركضوا وقد لمحوا معلمتهم هدى صاحبة الحجاب الأبيض الناصع كغيمة، والجلباب الفضفاض بلون السماء، فتسابقوا إليها ليصافحوها فرحين، وصياحهم يملأ الأزقة، رفعت حاجبيها إشارة لهم كي يكفّوا، فبدا منظرهما كطائرين يحاولان تعلم التحليق.

فتحت ذراعيها لهم، احتضنتهم طابعة قبلة على رأس كل واحد منهم، ووضعت يدها في حقيبتها الجلدية بلون العسل، سائلة الله أن تجد في جيبها بعض السكاكر لترضيهم، وأمسكت أصغرهم من يده، وسارت معهم كقائد بارع لسربٍ من الطيور المهاجرة، وتبعوها راغبين بألا تتركهم، غير أنها تابعت مهمتها في إيصال كل طفل إلى داره، متحسبة لحركة غدر، ومباغتة للنظام بهجمات جديدة. لوّحت هدى إليّ مودعة، ولمع خاتم جميل في يدها اليمنى، وبدت لي سعيدة

وابتسامتها مشرقة رغم الإنهاك البادي عليها. وكانت هذه تلويحة الوداع الأخيرة بيننا.

***

بعد أيام..

حلقت الطائرة مجدداً وانخفضت، اهتزت أركان البيوت قديمة الطراز التي لا تحتمل جدرانها مثل هذا النوع من الحقد، كما اهتزت نوافذ البيوت في العمارات الجديدة في الوعر الجديد أو حمص الجديدة كما تُسمى، وهي التي بُنيت كالورق الرقيق ولم يكن في حسبان من بناها أن تواجه في أحسن الأحوال إلا زلزالاً شِدّته خفيفة، لم يكن للحرب على الأحياء الآهلة بالمدنيين أي اعتبار، أسرعت هدى إلى أقرب مكانٍ لتحتمي به، نزلت قذيفة جديدة، وتعالت معها تكبيرات الثوار، يصدحون بها قهراً، يعتقدون بتصويبها نحو الطائرة. وقد اعتادوا مع مرور السنة الرابعة للثورة على سلاح التكبير، فباتت حناجرهم تصدح به من غير تفكير. فيما تقدم مجموعة من الثوار على سيارة تحمل قاذفاً وهي تترقب التحليق الثالث، لعل كيد النظام يكون في نحره هذه المرّة. غير أن الطائرات أعلنت يومها أنها قد اكتفت ضمنياً بهذا القدر.

رن هاتف هدى، فوقع في نفسها ما كانت تحذر، أجابت وقد قطبت حاجبيها وهي تنصت لحديث المتصل..

ثلاثة شهداء وخمسة جرحى!! سأكون في المشفى حالاً.

في المشفى كانت عيون المسعفات على خاتم الخطبة الذي يزين إصبع هدى،

لتهمس في أذنها إحداهن:

تمنيت لكِ عريساً أفضل يا حلوة! أنت جميلة ومتعلمة ومن عائلة مرموقة، ونصف شباب البلد يتمنون مثلك عروساً، فهل خلت الدنيا إلا من هذا المبتورة قدمه؟!

قطبت هدى حاجبيها، وقد توزّد خداها، وقالت بحزم خجول:

كفّي لسانك عن رامي، فهو زين الشباب، وأنا أسعد فتيات العالم به وشرف لي ارتباطي بشاب صاحب قضية مثله.

سألتها وقد استسلمت عن مؤمنة كيف أحوالها.

ابتسمت هدى سعيدة وقالت:

إنها في هذه اللحظات تتناول أول وجبة غداء مع عبد الرحمن!

أهكذا تترك عملها هنا وتمضي؟!

لديها هناك ما تنجزه، وأنا واثقة بأنها ستعود يوماً إلينا.

أنهت هدى عملها واختفت في الشوارع الخالية كنسمة، كورقة خريف تطير كيفما شاءت، وتعرف إلى أين تسير..

(45)

ما خرجنا إلا لنعود..
ولنا بقيّة شوكةٍ هنا ستوجعهم.
ظني بالله حسن، وأحسن الظن بثورتنا..
وبالعربيّة..

رامي

حي الغوطة[9]:

سويعاتٌ وهدأ التحليق بشكلٍ كُلّي..

ركضت طفلة وسط شارعه الرئيسي حاملة طائرة ورقية صغيرة، وقد أرخت جدائلها الحمراء فوق كتفيها فتقافزت معها الجدائل، ونادتها أمها بقلق..

غالية.. لا تبتعدي.

عادت الطفلة مسرعة وقد أخفت وجهها بدلال في جلباب أمها، وأعطتها طرف الخيط الذي يربط الطائرة، وقالت لها بحروف لا تكاد تكون بائنة..

خذي هذه، لا أحبها، بل أريد أن أصنع طائرة خاصة لأبي ليقصف كل العساكر الأشرار.

9) الغوطة: حي يقع وسط المدينة، كان له دور فعال في المظاهرات، أحكم النظام السيطرة عليه وبات يصنف ضمن الأحياء المحتلة.

شدت أمها على يدها بفزع طالبة أن تخفض صوتها، فيما تابعت سيرها معها وسط الشارع الرئيسي العريض، عبرتا أمام عسكري يتسكع في الشارع، التقطت الأم أنفاسها وأسرعت الخطى حتى تجاوزتاه، وأسرعت بالعودة إلى البيت والأم تتوعد ابنتها الغاضبة قائلة:

غالية.. إن كنتِ تحبين والدك وتشتاقين إليه فعليكِ التزام الصّمت في المرات القادمة..

وأجابت الطفلة معتذرة:

آسفة يا أمي، لكنهم أشرار ولابد أن نعاقبهم. الله سيعاقبهم.

مسحت الأم دمعة قهر تسربت من عينيها.

حي كرم الشامي[10]:

وتحليق طيران جديد، وهذه المرّة طائرة حربية تعلقت فيها الأنظار حائرة قلقة، إنها تقترب من البلد، من حمص القديمة حصراً..

صاح أبو صفوان وهو يتابع انخفاضها، والقذيفة التي تُرسلها:

ماذا تُراهم يقصفون في حاراتنا؟ هل يلمحون أشباحاً؟ هل يقاتلون آثار أولادنا التي تركوها ومضوا؟ ألم يشبعوا من قتلهم فطاردوا ذكرياتهم؟!!

ويأتي رجلٌ خمسيني مكفهر لونه، ويقول هامساً:

لا يا حاج، الطائرة تشارك في تصوير فيلم عن انتصارات النظام المزعومة في حمص

10) كرم الشامي: من الأحياء التي تحوي نسبة كبيرة من السكان، ويصنف ضمن الأحياء المحتلة إذ لا زال تحت سيطرة النظام.

القديمة..

ويجيب الشيخ غاضباً بصوت مسموع غير آبه بالاحتياطات الأمنية:

لعنهم الله.. انتصارات ماذا؟ لو كان الآن في حمص القديمة فقط مائة من ثوارها الأبطال ما كانوا ليجرؤوا على دخول شبر منها، لكنه الجوع، قاتلهم الله، قاتلهم الله. لا بارك الله فينا إن تركناها لهم، لا بارك الله فينا إن تركناها لهم.

ريف حمص الشمالي:

يوم آخر، والطيران قد حفظ عن ظهر قلب طريق العديّة، ولكن هذه المرّة الوجهة مختلفة، فهي لقصف الثوار في ريف حمص الشّمالي، حيث استقر المقام بشباب الحصار..

وهناك حيث وقف غياث ومحمود يتحادثان، تمر الطائرة الحربية من فوقهما وتنخفض، يتأملانها ولا يتزحزحا من مكانهما، فقد تعايشا مع كل شيء، بعد أن خبرا كل أنواع الأسلحة وذاقا وقعها، فلم يعودا يأبهان لسائق الطائرة مهما انخفض.

رفع محمود يده ليلتقط صورة، فقال له غياث ضاحكاً:

- متى ينتهي عندك هذا الشغف بالتصوير؟! ألا تمل؟

ضحك محمود مغتبطاً وأراه صورة حديثة التقطها للوعر. نظر غياث في تاريخ الصورة، فوجده تاريخ الأمس.

ازدادت دهشته وسأل صديقه، كيف التقطت صورة بهذه الدقة وهذا القرب؟!

أشار محمود باتجاه أفق ممتد تظهر فيه مبان بعيدة لا تكاد تُرى، وقال له:

نحن أقرب ما نكون لأهدافنا لكننا عادة لا نرى سوى الهمّ. ثم إن هذه ميزة آلات التصوير الدقيقة، ألم أقل لك من قبل أن ثمن هذه الآلة التي لا تعجبك ذهب؟!!

ابتسم غياث وقد هيجته الشجون، وتابع محمود قائلاً:

كم كانت حكايتنا صغيرة ومختصرة وحالمة، وجميلة.. أترانا يوماً نعود؟!!

حلّقت طائرة أخرى جديدة، فقال غياث وهو يراقبها تشق عباب الغيم سالكة طريقها بهدوء:

إنها طائرة ركّابٍ هذه المرَّة، طائرة تقلّ بعض أبنائها، وتمضي بصمتٍ دون وداعٍ مثل رحيلهم، ولا تترك أثراً ولو خيطاً من الدخان في السّماء يكتب على صفحتها ذكرى أو عبرة.

ليت طائرة ما تُعيد لنا رامي، فأنا متشوق لرؤيته بعد تركيب الطرف الاصطناعي، لقد وعدته أن أرقص في عرسه حتى الفجر.

صمت غياث وعيناه تتأملان في المدى، كان يحدّث نفسه عن هذه الأرض، كيف يتناوب الناس فيها بين المقيم والمسافر، والمقاتل والمدافع، والجاهر بالحق والساكت عنه، والوفي والخائن.. تتوالى القصص عليها فتختلف أو تتشابه، وتبقى هي العديّة.

ابتسم محمود وهو يقول:

لن تصدّق الأجيال القادمة أن هذا قد حصل معنا.

أجاب غياث وقد أضاء هاتفه باسم صديقه العزيز نضال:

لكن للحكاية بقيّة، ونحن من سيكتبها، لا أحد سوانا.

حمل غياث عدّته متجهاً إلى غرفة العمليات الجديدة، فيما غادر محمود ليوثق بعض الحالات في المشفى الميداني عند الطبيب حمزة، والذي استقر هناك ليتابع مهمته التي قرر أن ينذر حياته في سبيل تحقيقها.

في مكان ما في قلب العديَّة:

في حي فقير تسلل شاب صغير في ظلمة الليل إلى أقرب مكان للحاجز العسكري، وفي يده علبة بخاخ ملونة، وأسرع بكتابة كلمات على ذات الساتر الأسمنتي، وانسحب بخفة فيما كان العساكر يغطون في نوم عميق.

جن جنونهم حين استيقظوا في الصباح التالي ليقرؤوا عبارة: حرية للأبد.. الله أكبر..

كان يراقبهم من خلف الجدار العتيق ويضحك، حين شعر بيد تربت على كتفيه.

ارتعد والتفت خلفه، فوجد أمامه نضال، وتذكره على الفور.

انحنى نضال ليهمس في أذن الفتى:

هادي رضوان عبد السلام.. سلمت البطن التي حملتك.. بطل وابن بطل..

لمعت عينا الفتى فرحاً، وشد نضال على يده، وقال له:

انتبه لنفسك، لدراستك، ولا تخيب ظن رامي فيك.. لأجله.. لأجلك.. لأجل العديّة.

خذني معك، أرجوك.

سنلتقي قريباً، أعدك.

عاد نضال إلى منزله قبيل الفجر بنصف ساعة، أغلق الباب بهدوء شديد وحذر، وتوقف لحظة ليلتقط بعض أنفاسه.

أسرع إلى المطبخ، ووضع ثيابه في الغسالة، وفتح جهاز حاسبه المحمول، ضغط الأزرار بخفة ليكتب كلمة المرور، تأكد من عمل برنامج الحماية وتشفير البيانات، وأرسل رسالة إلكترونية فورية إلى غياث كتب فيها:

تمت بنجاح.

ثم قام بحذف الرسالة من الرسائل المرسلة، وتجول قليلاً في مواقع التواصل، وقرأ عبارات لشباب يشتمونه، لأنه قام بتسوية مع النظام قبل خروج الثوار من حمص القديمة، واختفى فجأة، ابتسم بعمق، وسجل الخروج بسرعة، وخرج إلى الشرفة يتأمل السماء ليمحو بعض معالم توتره، قبل أن يستسلم لنوم عميق.

في اليوم التالي خرج من منزله إلى عمله الجديد الذي تسلمه منذ أيام بعد أن تدبر اسماً وهوية جديدين مناسبين لحياته الجديدة، ولاحظ بطرف عينيه وجوه العساكر على الحواجز واضطرابهم.

ابتسم ابتسامة خفيّة، ووصل إلى مكان عمله، ليستمع باهتمام إلى أصداء إنجازه الذي ضجت به المدينة، والذي لم يكن الأول، ولن يكون الأخير..

هل سمعتم خبر اغتيال الضابط؟

إنها لحادثة غريبة!

يقولون إن شجاراً نشب بينه وبين ضابط آخر.

ربما كان انتحاراً، فالضباط يعانون الكآبة هذه الأيام، والعساكر كذلك..

طلب كوباً من الشاي، وقد تذكر شاي الحصار بطعمه الغريب، والذي كان

باجتماع الشباب ألذ شاي يمكن تذوقه.

وتردد في داخله صوت حذيفة وهو يقول:

« يا بني.. بوسع خمسين رجلاً أن يصنعوا فرقاً

بوسع عشر رجال أن يصنعوا فرقاً

بوسع خمسة رجال أن يصنعوا فرقاً

بوسع رجل واحد أن يصنع فرقاً

المهم أن يعرف كل واحد دوره، رسالته وغايته، المهم أن يؤمن أنها معركة طويلة بين الخير والشَّر، وستستمر، حتى يُثبت أهل الخير من كل موقع ووظيفة ومكان أنفسهم، ويتساقط البقية على الطريق..

تمت بحمد الله

الإثنين ٥ تشرين الأول ٢٠١٥م.

تمام العاشرة مساءً

حمص - سورية

الوعر المحاصر

نتائج حصار حمص القديمة:

دام الحصار أكثر من ٧٠٠ يوماً، وأطلق عليه حصار حمص العظيم.

شهداء الحصار ١٢٠٠-١٣٠٠ شهيد وشهيدة، أغلبهم نساء وأطفال خدموا الثورة ضمن قدراتهم، فلا أحد كان في الحصار بلا عمل.

أكثر من ألف عسكري وضابط للنظام قتلوا في المعارك مع الثوار، بينهم ١٥٠ على جبهة واحدة.

سيطرة النظام على حمص القديمة.

بقاء الوعر الحي الوحيد في حمص الذي يقع تحت سيطرة الثوار، والذي ظل محاصراً حتى هذه اللحظة.

انتقال المعارك إلى ريف حمص الشمالي خاصّة، واستمرار المناوشات في حي الوعر وخاصة الجزيرة السابعة، وانتقال كثير من مجاهدي الحصار إلى معارك تحرير إدلب، أو مغادرتهم إلى خارج البلاد بعد أن شعروا باليأس والإنهاك.

تصاعد وتيرة القصف من الريف إلى الأحياء المؤيدة، وأيضاً انفجار المفخخات فيها.

وتستمر الثورة.

شكر خاص للكلّ من:

يمان الحمصي

أبو رامي الحمصي

أبو خالد أبو طاهر

أبو بدر الدين

أبو عزام الأنصاري

مؤمنة الحرة

محمد الحمصي

أبو صلاح الحمصي

وليد فارس

والشهيدين: أبو نزار الأنصاري - أبو حمزة كوارث تقبلهما الله

وكل تعاون وساهم في إنجاز هذا العمل.